قصص

الخبز المر

ماجد أبو شرار

الخبز المر

قصـــص

ماجد أبو شرار

فهرس

مكان البطل ..... - ١٧ -

النجار الصغير ..... - ٢٧ -

أفاعي الماء..... - ٣٥ -

سلة الملوخية..... - ٤٢ -

بـ ـ رازق ..... - ٤٨ -

تمـ ـ زق تمزق..... - ٥٥ -

تمزق..... - ٥٦ -

جسر منتصف الليل ..... - ٦٥ -

الخبـ ـ ز المـ ر ..... - ٧٤ -

وانهار الجدار..... - ٨٤ -

الشمس تذوب..... - ٩٣ -

الزنجية ..... - ١٠٥ -

المقدمة

بقلم : يحيى يخلف

نشرت معظم قصص هذه المجموعة في مجلة (الأفـق الجديد) المقدسية، التي ظهرت في مطلع السـتينات، والتـي شكلت حاضنة ثقافية لكتابات الأدباء الشبان من فلسـطينيين وأردنيين، والتي لعبت دورا كبيرا في تنشيط الحياة الثقافيـة في الضفتين.

وبالرغم من أن المجلة قد توقفت عن الصـدور عـام ١٩٦٦، إلا أن أثرها على الثقافة في الضفة الغربيـة وفـي الأردن ما زال ماثلا، ولا تزال أقلام الدارسين تتناول دورها وأهميتها والنصوص الإبداعية التي نشرت على صـفحاتها. لقد حملت تلك المجلة بما قدمت مـن موضـوعات همـوم القضية الفلسطينية، كما أنها طرحت ضرورة إبراز ما أسمته بـ (أدب النكبة)، فكانت معظم الكتابات القصصية والشعرية تتناول الهم الفلسطيني.

وقدمت المجلة على صعيد القصة القصيرة عددا مـن الكتاب، كان من أبرزهم: ماجد أبو شرار، نمـر سـرحان، صبحي.

شحروري، محمود شـقير، حكـم بلعـاوي، خليـل السواحري، فخري قموار، وكاتب هذه السطور.

ولقد تميز ماجد أبو شرار من بين هذه الأسماء، ولفتت قصصه انتباه نقاد الأفق الجديد، وكان من أبـرزهم الكاتـب والناقد التقدمي محمد البطراوي الذي ما زال يسهم حتى الآن في إثراء الحياة الثقافية داخل الأرض المحتلة.

رب سائل يسأل: ولماذا بعد هذه السنوات الطويلة يعود ماجد أبو شرار إلى نشر تلك القصص؟

ثم: لماذا توقف ماجد عن كتابة القصة؟

وسوف أسمع لنفسي بأن أجيب على هذين السؤالين.. فقد كنت واحدا من الذين ألحوا على ماجد لنشر قصصه فـي كتاب، ليس لأنها ترتبط بالنسبة لي بذكريات حـارة لشـباب مبكر، بل لأن قصص ماجد نشرت في (الأفق الجديد).

أن مجلة (الأفق الجديد) ستكون مرجعا هامـا لجميـع الدارسين الذين يدرسون الأدب الفلسطيني في تلك المرحلـة

(١٩٦٠ – ١٩٦٦)، وأن القصـص التـي نشـرت علـى صفحاتها تمثل الإرهاصات الأولى لقصة فلسطينية ناضـجة، الإرهاصات الأولى التي سبقت ورافقـت تأسـيس منظمـة التحرير الفلسطينية، وانطلاقة الكفاح المسلح عـام ١٩٦٥.. انطلاقة فتح.

إن قراءة ودراسة القصص الفلسطينية التـي نشـرت بمجلة الأفق الجديد يساهم في رصـد النتـاج الفنـي لتلـك المرحلة، وما له من دلالات سياسية واجتماعية.

وفي هذا السياق، فقد كنت واحدا من المتحمسين لنشر قصص هذه المجموعة، وسوف أدعو إلى نشر قصص بقيـة كتاب تلك الفترة الذين لم ينشروا قصصهم في كتـب حتـى الآن، وأخص منهم بالذكر، القـاص صـبحي شـحروري، وأعتقد أنه ما زال مقيما في عنبتا في الأرض المحتلة.

لذا؛ فأنا منحاز إلى هذه القصـص، ولا أطلـب مـن القارئ أن ينحاز معي، لكنني أطالبـه بـأن يتـذكر تـاريخ نشرها، وأن يتذكر أنها إرهاصات أولى لثقافة وطنية وثورية تتكون.

لقد امتازت قصص ماجد بالواقعيـة، الواقعيـة ذات المضمون الاجتماعي الملتزم بقضية الكـادحين. ولا يخفـى على القارئ تأثره الطفيف بالفلسفة الوجودية التي كانت سائدة في تلك الآونة.

لماذا توقف ماجد عن كتابة القصة؟

سأقول بالنيابة عنه، أن كثيرا من كتابنا توقفوا لسنوات طويلة بسبب تفرغهم للعمل النضالي، فعلى سـبيل المثـال توقف الكاتب والمناضل محمود شقير عـن الكتابـة أثنـاء وجوده في القدس بعد الاحتلال، بسبب تكريسه الوقت والجهد للعمل النضالي.

لقد انصرف ماجد إلى العمل النضالي. توقـف عـن كتابة القصة ومارس العمل السياسي.

انصرف إلى السياسة ولكنه لم يهجـر القصـة. ظـل طوال السنوات العشر الماضية يكرس وقته للعمـل اليـومي كمسئول عن دائرة الإعلام في فتح، ثم كمسـئول للإعـلام الفلسطيني الموحد.

ظل يمارس الكتابة السياسية والعمل السياسـي، أمـا القصة فهي التجربة التي يكتبها ويختزنها في أعماقه. ظـل

ماجد ذلك المثقف الثوري الذي يحترم الثقافة، ويتـأثر بهـا، ويتحمس لها، ويساهم في تنشيطها.

كان يقول دائما: أتمنى أن يتاح لـي الوقـت الكـافي للعودة إلى كتابة القصة... لكتابة التجربـة النضـالية التـي اختزنتها طوال هذه السنوات الطويلة.

فهل يعود ماجد إلى الكتابة؟

هل يكون نشر هذه القصص محرضا له ودافعا للعودة؟

عاد محمود شقير للكتابة بعد صمت قصير..

فهل تعود إلى الكتابة يا ماجد بعد هذا الصمت الطويل؟

محمد إسماعيل.. إنسان وديع طيب، وعزيـز علـى نفسي، لكن معرفتي به ترتبط بـذكرى طريفـة ومؤلمـة.. بالضبط لا أذكر التاريخ، فهو يأتي في الأيام الأولـى مـن الصيف الذي أعقب تمزيق فلسطين، كنت طفلا لي من العمر سنوات عشر، وبلدتي جبلية تستلقي هادئة على كتـف جبـل يتلفع دوما بخضرة رائعة مبعثها أشجار الزيتـون الرومـي القديم وخضرة أشد روعة تأتي مع أنفاس الربيـع الهادئـة لتتحول إلى صفرة براقة تفرش الحقول مع حلول كل صيف، ففي عصر كل يوم كنت ولداتي من الصبية تنزلق عبر ظلال

الزيتون لننطلق بمرح ونشوة وسط حقول القمـح الناضـج نلعب كل لعبة عرفناها، ثم نجلس لنيل بعض راحة لننسل بعد ذلك بنزق، ولامبالاة لنغزو أول حقل قمح.. ننـزع السـنابل المكتنزة عن عيدان الذهب لتمتلئ بعد لحظات جيوبنا بهـا، وما نفرغ من ذلك حتى نتوجه إلى قرب العين تختفـي بـين صخرتين كبيرتين متقابلتين فيفرش أحدنا منديل رأسـه ثـم نكوم السنابل لتتعهدها أكفنـا السـفيرة بـالفرك، وأفواهنـا المزمومة بالنفخ، فينفصل الحب عن القش وتبقى في وسـط المنديل كومة هزيلة من قمح كنا نعتبرها ذات قـوة شـرائية تمكننا من ابتياع كل ما في حوانيت البلدة.. نفرغ من ذلـك لنصعد مع سفح الجبل فنمر بكرم (الشيخ محمود) ثم نميـل قليلا لندخل دفعة واحدة حيث حانوت (إبراهيم راشد)، نـدفع له بصرة القمح فيفرغها في الميزان ملقيا إلينا بالمنديل متمتما (ماذا تريدون؟) ونختاف دوما لنلتفت إليه وقد دفع إلينا صرة من ورق لف فيها حبات من تمر.

في ذلك اليوم الذي لا أذكر تاريخه دخلنـا الحـانوت ودفعنا له الصرة، ولكزني أحمد وأشار برأسه تجاه المـدخل الثاني للحانوت.. وهناك رأيته.. رأيت محمد إسماعيل للمرة

الأولى.. عله كان في الأربعين.. لا أذكر.. إنسان كغيره من الناس لا يميزه عنهم إلا رأس خلا تماما من أي أثر للشعر؛ فهو ذو جلد أصفر تشوبه حمرة خفيفة يلمع لمعانـا شـديدا يبعث قشعريرة قرف في النفس.. نظرت إلى رأسه وأمعنـت النظر ثم خرجنا ووقفنا عند باب الحانوت وهمست للصبية:

- هل رأيتم الرجل الغريب الذي بالداخل؟

أشاروا برءوسهم أن نعم.. فقلت:

- أريد أن ألمس رأسه الأجرد.

ضحكوا وسألني أحمد مستغربا:

- وما شأنك بهذا الرأس القبيح؟!

أجبت:

- لا شيء.. ادخلوا واطلبوا تبديل التمـر بحلقـوم، وانظروا ما سأفعل.

دخلنا من جديد واتجهت إلى حيث يجلس ودرت مـن خلفه ولعقت باطن يدي بلساني، وضربت بها بشـدة علـى الرأس الأجرد.. وانتصب الرجل، فإذا له قامة جـد طويلـة وأراد أن يهوي بيده ليلطمني فدرت بسرعة وانطلقت لتتعثر

قدمي بعتبة الباب، وصدم جسدي الصغير الأرض، ونهضت منطلقا بسرعة إلى البيت، والدم يسيل غزيرا علـى وجهـي ووصلت البيت لأجد أن شفتي العليا قد شرمت، وعظم أنفـي قد كسر، واضطررت أن أكذب لأبرر ما حصل وتمتمـت: رجل في حانوت إبراهيم راشد ضربني فهربـت وتعثـرت قدمي..

صاح والدي مزمجرا:

- وما الذي ذهب بك إلى الحانوت؟

بلا تلعثم أجبت:

- أرسلني المعلم لأحضر علبة سجاير.

وعاد والدي يسأل:

- ولم ضربك الرجل؟

أجبت:

- لا أدري.. لم أشعر إلا وهو يصـفعني ويشـتمني فهربت..

انطلق والدي غاضبا.. أما أنا فقد وليت هاربا إلى بيت عمتي وكلمات والدتي التي تتحفني بها كلما حاولت الكـذب ترن في أذني (يا ولد.. حبل الكذب قصير..).

علمت في اليوم التالي أن والدي تعارك مع الرجل.. ثم تكشفت له الحقيقة فاعتذر له ودعاه لضيافتنا.. وحل الرجـل تلك الليلة ضيفا علينا.. ولعل أجمل ما في ضيافته أنه شـفع لي في اليوم التالي عند والدي فلم يعـاقبني.. وفهمـت مـن حديثه مع والدي أنه ينوي فتح حـانوت لصـنع وتصـليح الأحذية في البلدة، واستأجر في السماء حانوتا يقع في أعلـى طرف السوق وفي مكان لا يبعد كثيرا عن بيتنا.

عاد بعد غياب أيام ومعه (العدة) وبدأ العمـل، وفـي شهور قليلة أصبح محمد إسماعيل حذاء البلدة دون منـازع، على مبعث ذلك إخلاصه الشديد لعمله وإتقانه له.. فكنت إذا ما دخلت عليه الحانوت وجدته يكتفي بالنظر إليك قلـيلا ثـم يعود لينكب على عمله.. وإذا ما نظرت في جدران الحانوت لوجدت أنها رشقت بكاملها بصور قطعت من مجلات منوعة لأطفال مختلفي السن والشكل وفي الجدار الذي يقابله رشقت صورة لامرأة جميلة لها ابتسامة حزينة وعيون هادئة عميقة

النظرات.. لا يلبث بين حين وآخر إلا وينظـر بولـهٍ إلـى الصورة ثم يسلخ نفسا لاهبا من صدره العريض يعود بعـده إلى العمل من جديد.

وأذكر أنه غضب يوما غضبا شديدا حين مزق طفـل صورة كانت قريبة من متناول يده، كما ويروي عـدد مـن رجال البلدة أنهم كثيرا ما فاجئوا محمد إسماعيل وهو يتحدث إلى الصور باكيا.. كما وأن سكان البلدة أصـبحوا يسـمونه بأبي جميل، وجميل اسمي أنا وتسميتهم له بهذا الاسم مردها للحادثة التي حدثت لي معه عندما ضربته بكفي على رأسـه والتي علم بها كل سكان البلـدة، وكـان الـبعض يسـميه بأبي جميل الأقرع لخلو رأسه من أي أثر للشعر، وآخـرون يسمونه بأبي الصور لولعه الشديد بها.

كان المفروض أن تكون علاقتي سـيئة مـع محمـد إسماعيل؛ لأن بدايتها لم تكن تبشر بخير لكن العكـس هـو الحاصل، فقد توطدت علاقتي به وأصبحت أقضـي معظـم وقتي في حانوته أتأمله حينا، وأتأمـل الصـور فـي أكثـر الأحيان. وكان إذا تحدث إلى أشعر بالحنان يقطر صافيا مع صوته المشروخ وكثيرا ما كان يتحسس رأسي ويدور بكفـه

الحانية على عنقي ثم تستقر فترة على كتفي ليعود إلى عمله من جديد.

بعد سنوات غادرت البلدة إلى المدينة المجاورة لإتمام دراستي الثانوية، فكنت لا أزور البلدة إلا لماما أتمتـع فيهـا بالجلوس إلى محمد إسماعيل الذي كثيرا مـا جعلـت منـه واسطة لدي والدي كلما، احتجت إلى مصروف أكثـر ولـم يفشل مرة واحدة في وساطته فلا يعود إلا والمبلغ في جيبـه يسلمه لي حانيا باسما.

في بلدتي يتزوج الشباب حين بلوغهم سن العشـرين، وكل من يشذ عن هذه القاعدة دون عـذر مقبـول واضـح فسيتعرض حتما إلى تعليقات خبيثة يغمز بها جانبه كل يـوم وكثير من الشباب باعوا كل ما يملكون ليتزوجوا ثم ليجنبـوا أنفسهم تعليقات مبعثها عادات وتقاليـد صـارمة لا تـرحم، وأصبح محمد إسماعيل هو المثل الحي لكل من لا يبادر إلى الزواج وذهب البعض إلى درجة أنهم قرروا أن يطلبوا منـه تفسيرا لحالته، فرغم كونه غريبا عن البلدة فقد أصـبح مـع الزمن أحد أبنائها ومعنى هذا أن من حق الجميع التدخل فـي أدق شئونه الخاصة.

وعن لي يوما أن أسأله عن سر عزوبيته .. فقلت:

- الكل يسأل عن سر عزوبيتك وقد تقدم بك السن.

لمع الغضب في عينيه وتراقصت أشداقه وقال بصوت مشروخ:

- وهل أنت كالآخرين؟!..

أجبت مذهولا:

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أن هذا ليس من شأنك.. ثم لا أقبل منك أن تفاتحني في هذا الأمر.

انخرست!.

ومضت سنوات.. ظلت علاقتـي بمحمـد إسـماعيل قوية.. وإن كنت أتساءل سرا في كل مرة أجلس فيهـا إليه عن سر غضبه حين سألته عن سر عزوبيته.

وكان يوم ذهبت فيه لزيارة ابن خالتي المقيم في مدينة بعيدة.. وفي المساء حضر بعض أصدقائه فقـدمني إلـيهم. فلان ابن خالتي من بلدة.. وذكر اسم البلد فبادرني أحدهم:

- إذن تعرف محمد إسماعيل.

فوجئت، وسررت وأجبت:

- نعم، أعرفه أحسن معرفة.

- وكيف هو.

- بخير وموفق في عمله.

- فسلخ نفسا لاهبا من صدره وتمتم:

- مسكين.

قلت في نفسي وجدت المفتاح.. وسألته:

- ما مدى معرفتك به؟

أجاب:

- هو أحد أقربائي.. فقد زوجه ووالديه في معركـة يافا.. وكاد يجن.. وهرب مع من هـرب وبقـي كالمعتوه شهورا إلى أن اختفى فجأة ثم علمنا أنـه يعمل في بلادتكم.

قلت بحسرة وتمزق:

- إذن كان له زوجة وولدان.

أجاب:

- نعم، وكبيرهم حسن يشبهك إلى حد بعيد..!!

«كتبت عام ١٩٦٢»

مكان البطل

مكان البطل

«إلى روح البطل.. إبراهيم أبو ديه»

قِلةٌ.. أولئك الذين كانوا يعلمون أن العاصفة وشـكية.. وستأتي مزمجرة عنيدة طاحنة.. أما الكثرة.. فقد استسـلموا لراحة لا لذة فيها.. فهم يعلمون تماما أن الراحـة سـيعقبها تعب.. أي تعب.. وينظر إبراهيم إلى ساعته ويسحب نفسـا أخيرا من لفافته ويلقيها ثم يدوسها بغل تحت قدمه فتنسحق.. وينظر في حطامها.. أشلاء صفراء تشـوبها بقـع سـوداء ويتمتم:- إنها النهاية.. النهاية التي لا بـد منهـا.. ولكـن.. لمن؟!..

ويشعل لفافة جديدة وحطام سابقتها لا زال في عينيه.. حطام.. حطام.. أن الحطام يلف كل شيء.. ويـدور بعينيـه فيما حوله.. ولا جديد هناك.. إلا هذا الهدوء البغيض.. أنـه يكره الهدوء.. يكرهه حتى العظام.. وتصدم عيناه الصـحيفة الملقاة أمامه على الطاولـة ويقـرأ العنـوان ذا الحـروف الكبيرة.. (القدس تستلم) حروف كبيرة فـي حمـرة الـدم..

وبحروف سوداء أصغر.. (عصابات العدو تمـوت عطشـا) ويمسك الجريدة بكلتا يديه لتنقبضا بقوة وجنون على الصحيفة ويتناثر حطام الصحيفة ليلف قدميه ويغمغم:

- القدس تستسلم.. هؤلاء المغفلون؟!

ثم يصرخ بأعلى صوته:

- حسن.. حسن.

ويدخل حسن بجسده النحيل وبعيون مغبشـة أرهقهـا سهر طويل.

- نعم.. سيدي.

- هل من جديد؟!.

- حتى الآن.. لا جديد

- حسنا..

ويعود إبراهيم إلى ضياعه ووحدته ويشعر بالانسحاق في كل ذاته.. ودوار أصغر عنيف يدور به في دنيا فارغة.. ويخرج من الغرفة ويصعد على درجات ضيقة ليمر بجنوده كل في ركن يحتضن سلاحه، وهـدوء وصـمت مـزعجين يخيمان على المكان.. يمر بهم دون أن يحييهم فيستغربون..

ويصعد إلى أعلى حتى يصل إلى أعلى طابق في البناء، فيجد (جبر) قابعا وراء أكياس الرمل ومدفعه الرشاش مصوب إلى كل القدس الجديدة.. ويلتفت جبر ويقول:

- حسنا سيدي.. كنت سأتصل بك.. يبدو أن الهجوم بات وشيكا.. تحركات واسعة وأعداد كبيرة كلهـا تحيط بنا.. وأرجو ألا يتمكنوا من قطع الطريـق الموصل للقيادة.. يقول هذا وهو يشـير حولـه.. لا ينظر إبراهيم حيث يشـير جبـر بـل يتسـلقه بنظراته.. إنه يعجب باستمرار من شدة سواد بشرة جبر ولمعانها.. ثم هذا البريق الغريب الذي يتطاير دوما من عينيه.. لكن جبر هو أحب الجنود إليـه وأقربهم إلى نفسه.. ويتمتم إبراهيم وهـو يـدور بعينيه فيما حوله من فضاء فارغ من الحركة مقنع بسكون رهيب:

- هؤلاء المجانين.. أنها المرة الرابعة التي يهاجمون فيها مواقعنا.. فلا ينالون إلا الهزيمة والخسـارة.. فلم هذا السخف.. أسمع يا جبـر.. السـاعة الآن تقارب السادسة مساء، ثم أنت الآن على أن تتولى

الحراسة بعد منتصف الليل سأرسل عبد الـرحمن ليشغل مركزك.

- يهبط إبراهيم على الدرجات الملتوية مارا من جديد بجنوده فيطلب من بعضهم الهبوط إلى المسـتودع وجلب كل الذخيرة ثم يستدعي عبد الرحمن:

- أسمع عبد الرحمن.. أريد حراسة قوية هذه الليلة.. الملاعين يبيتون هجوما مركـزا.. لا أدري متـى يبدأ بالضبط.. المهم أنه وشيك الوقـوع.. اسـتلم مكان جبر الآن ووزع كل الذخيرة على الرجال.

ويعود إبراهيم إلى غرفته فيجد إشارة من القيادة تطلب معلومات عن حشود العدو فيشير بيده إلـى حسـن جنـدي اللاسلكي.. لا جديد.. ويترك حسـن الغرفـة مخلفـا وراءه فراغا وضياعا عادا ليلُفّا إبراهيم من جديد.. ويحاول إبراهيم أن يبدد السكون المحيط به، وأن يتخلص من الضياع الـذي يغرقه فيشعل لفافة يسحب منها نفسا طويلا يحاول اسـتبقاءه في صدره أطول مدة ممكنة، ثم ينفثه فيخرج على شكل خيط رفيع يجرح الهواء، ثم يذوب فيه فكأنه لم يكن، يتمتم ويفكر:

(الليلة.. غدا.. أو بعد غد.. سنذوب هنـا فـي أتـون المعركة.. فنصير إلى دخان يتلاشى.. ويتلاشى ولا شـيء غير التلاشي ثم النسيان.) وتهاجمه فجأة الذكريات.. ذكريات كلها مرة.. مرارة واقعة.. زوجته الجميلة العاقر بابتسـامتها الحزينة.. وأملها المطموس.. قريته الصغيرة البطلـة التـي رعته بطيبتها، وغذته ببساطتها فشب فيها لتتفتح عيناه علـى فقر مجرم يلف قريته.. وعبودية واستغلال يطبقان على كل مقدرات بلاده ووطنه.. ووجوه حمراء قذرة تتحكم بمصـيره وبمصير كل من في بلاده وخيانات ذوي النفـوس المريضـة والقلوب المتحجرة.. يسهلون للأجنبي حكم وطنه فيتجسسون ويسمسرون دون رادع أو وازع، لولا هؤلاء أو أولئك لمـا كان هنا في القطمون لا هو ولا جبـر ولا عبـد الـرحمن، ولا آلاف غيرهم يقبعون ليل نهار وراء الحديد البارد الـذي ينشر الموت إذا دبت فيه الحياة.. ويصحو على لذعة اللفافـة لأنامله فيلقيها مفكرا (إنها النار.. النار التي تأكل الحياة..).

ويخرج ليتفقد رجاله فيمر بهم وقد تكومـت الـذخيرة على يمين كل منهم فيجيبهم هاشا باشا مشجعا وقد شعر الآن بأنه أصبح إنسانا جديدا يتقد حماسا ويمتلئ نشاطا.. ويصـعد

إلى أعلى بناية (الدير) فيجد عبد الرحمن وبجانبه جبر كـل يقبع خلف مدفعه الرشاش فيبادر جبرا قائلا:

- المفروض أن تكون نائما الآن يا جبر.
- عفوا لم أتمكـن مـن النـوم فصـعدت لأسـامر عبد الرحمن.
- وهل من جديد؟
- سمعت منذ قليل صوتا أقوى بكثير مـن صـوت السيارة وأغلب الظن أنهم سيستعينون بالدبابات في هذه المرة...
- دبابات.. هذه مصيبة.. لا مدافع مضادة للـدبابات لدينا.. ثم من أين أتوا بالدبابات.. لكن لا تنسوا أن الشارع الرئيسي المؤدي إلى هنا مليء بـالحواجز المنيعة.. فإذا تمكنوا من الوصول إلى الحـواجز ونسفها كانت نهايتنا..
- سأتكفل أنا بمنطقة الحواجز ولن يصلها أحد.
- وأنت يا عبد الرحمن تساند جبر بمدفعك ولا تغادر مكانك بجواره إلا في حالة الضرورة القصوى.

يهبط إبراهيم الدرجة الأولى.. ثم الثانية.. لينطلق مدفع جبر مزمجرا غاضبا منذرا ببدء المعركة.. فيسارع بالهبوط وقد بدأت حرارة الحياة تسري في بـرودة الحديـد.. الـذي يبصق النار التي لا ترحم، ويتصل إبراهيم بالقيادة مبلغـا أن الهجوم عادي حتى الآن.. ويعود إلى الصعود ويقترب مـن جبر الذي أطبق بيده السوداء على الحديد الأسود وكل نـار السواد موجهة إلى منطقة الحواجز ويصيح عبد الرحمن:

- إنهم كثيرون.. كثيرون جـدا وكلهـم يحـاولون الوصول إلى منطقة الحواجز.

وتمر ساعات ثلاث والمعركة على أشـدها وإبـراهيم يتجول بين الرجال، لقد فقد اثنين حتى الآن وبقـي ثمانيـة وستون.. إنه مستعد لأن يحارب معهم شهرا.. عاما.. كـل الزمن على أن تبقى منطقة الحواجز سليمة.. ويهبط ليرسـل تقريرا جديدا عن سير المعركة، ويعود ليقف بجـوار جبـر وعبد الرحمن وهما ينشران الموت في منطقـة الحـواجز.. وينظر إلى جبر والنار تنطلق من سواد مدفعه.. أن السـواد ابن النار وجبر ابنها، وسـيحرق كـل مـن يقتـرب مـن الحواجز.. ويذوب سواد الليل في أنفاس النهـار الجديـد..

وينظر إبراهيم حوله.. فيرى الحطام.. الحطـام فـي كـل مكان.. مئات الجثث مبعثرة حول الدير وكلها فـي منطقـة الحواجز.. منطقة جبر.. وخلف الحواجز يـرى المصـيبة.. الدبابات وقد بدأت تتحرك لتأخذ دورها في المعركة.

ومع ارتفاع الشمس في كبد السماء يرتفع عدد الضحايا من رجال إبراهيم حتى وصل الرقم إلى اثنين وثلاثين ويقدر إبراهيم وقد كثر تساقط قنابـل (الهـاون) علـى الـدير أن الساعات القلائل القادمة ستحمل الموت للجميـع.. ويتصـل بالقيادة باسطا سير المعركة فيأتي الرد مذهلا موجزا:

- انسحبوا.. وفورا..!

بمنتهى البساطة تتخلى القيادة عن القطمون.. ويصـعد إلى أعلى الدير ليجد عبد الرحمن وقد أصيب بإصابة قاتلة.. وجبر بإصابة في ساقه، ولكنه لا زال في أوج قوته ويبادره جبر قائلا:

- سيدي.. لا فائدة.. انسحبوا وسأحميكم.

ويتمتم إبراهيم:

- وأنت أيضا يا جبر.. تريدنا أن ننسحب.

ويجيب جبر دون أن يلتفت:

- هذا واقع المعركة.. الدبابات نسفت قسما كبيرا من منطقة الحواجز.. إلي بصـندوق قنابـل يدويـة وانسحبوا وسأحميكم.. هذا مكـاني ولـن أتخلـى عنه.. ولن أتمكن من الانسحاب معكـم، فسـاقي مهشمة وسأقاتل حتى النهاية.. أوصيك بأولادي..

في السنوات القليلة التي تلت موت جبر.. والتي قضاها إبراهيم طريح الفراش في المستشفى بعد إصابته في إحـدى المعارك كان يستدعي دوما سالما وإخوته ليذكرهم بوالـدهم جبر.. البطل الذي منح الحياة لزملائه نظير موته.

«كتيب عام ١٩٦٠»

النجار الصغير

النجار الصغير

يبدو لي كلما أراه.. كدمية كبيرة رائعة ملقاة بإهمـال في مطبخ.. شعر أشقر مبعثر.. وعينان زرقـاوان تطفحـان بنظرات مكسرة، وكفان ناحلان صغيران أسـند بإحـداهما جانب وجهه الشمعي.. وأمسك بالأخرى ملعقة كبيرة يضرب بها ضربات رتيبة هينة على فخذه الصغير، وما عـدا ذلـك فثياب متسخة يميزها سروال ضيق مرقـوع فـوق الركبـة اليسرى، وأصبح كحبة كستناء مقشورة، يبرز من ثقب واسع في حذائه المهترئ، ثم قلب صغير يدق كيفما اتفق منذ عشر سنوات، وإذا ما نظرت فيما حول الدمية فهناك عدة مقـالي يتدلى سواد معدنها مع بياض الحـائط المغـبش، ورفـوف مزحومة بالأطباق والطناجر وأكياس استند بظهره إليها.

وانطلق صوت عبر إليه عبر الستارة القماشـية التـي تفصله عن صالة المطعم:

- هنا عمان.. نوافيكم بنشرة الأخبار.

ألقى الملعقة الكبيرة واتسع الفراغ بين ظهره والأكياس استقام وفكر: (إنها السادسة مساء.. الحمـص فـي القـدر

الأسود الكبير وموعد غليه قد حان) استدار وحمـل القـدر بصعوبة ظاهرة، وجهد عازما مصرا على رفعه إلى حوض الغسيل.. لكنه فشل فاضطر إلى نشل الحمص من الماء بكفيه وهو ينظر إلى الستارة خوفا من قدوم (أبي حسن) صـاحب المطعم.. لقد منعه من استعمال هذه الطريقة وأصر على أن يرفع القدر ليزيل ماءه أولا في حوض الغسيل، ثـم يسـكب عليه الماء من جديد.. المهم أنهم عمله.. ووضع الحمص في قدر جديد على النار، وأتاه صوت من صالة المطعم:

- كمال، ارفع (البوش).

أزاح الستارة وخرج برأسه أولا، ثم أتبعه بقية جسـده ثم عاد وتناول الفوطة وحطها على كتفه ودار بعينيه ثم اتجه إلى إحدى المناضد، ورفع الأطباق، ومسح بالفوطـة وجـه المنضدة الزجاجي، وعاد إلى الداخل وهو يفكـر (منعـول أبو هالأستاذ.. ما بياكل إلا في خمس صحون.. وبعدين يـا ابن الكلب.. اغسل يا كمال..!) وتطـاول بجـوار حـوض الغسيل وأدار الصنبور على قطعة الإسفنج ثم نثـر بعـض مسحوق الصابون، وتناول طبقا وهو يحاذر أن يهرب مـن بين أصابعه وكلمات صاحب المطعم البغيضة ترن في أذنيه

(المرة بخصم حق الصحن، مرة الجاية أبو حسن، قالت أمي إن أبي كان نجارا في يافا (نجار قد الدنيا) وأننا كنـا نأكـل اللحم كل يوم، ونلبس أحذية جديدة كل صباح عيـد؛ حيـث تمتلئ أيدينا (بالتعاريف) وأننا ذهبنا مرة إلى موسـم النبـي موسى) وقطع خيط أفكاره صوت معاد:

- كمال.. ارفع (البوش).

وعاد بكومة أخرى من الأطباق، وعاد رأسه الصـغير ليفكر من جديد: (أمي تقول إنني أشبه والدي تمام الشـبه.. هذا.. لكنني لا أشبه شيئا ولا يعقل أن يكون النجار الذي كان (قد الدنيا) يشبهني أو أشبهه أنا.. لكن أمي تقول ذلك، وهـي لا تكذب).. قالت: (اسمع يا كمال شد حيلك وستصبح نجارا عظيما كوالدك.. سأرسلك عند أبو محمد النجـار (فـتلقط) الصنعة في سنوات، وتوفر مبلغا ثم تستقل بعملـك وتصـبح نجارا، لكنها لم ترسلني عند أبي محمد، بل عند أبي حسـن (أبو كرش مليان ضفادع).

ونظر بطرف عينه إلى القدر ولاحظ أن المـاء بـدأ يفور.. وعاد ينظر في الصحون.. إن قلبه يفور بالكراهيـة والمقت على كل الرجال.. لا شك أنهم كلهم كريهون، يبعثون

القرف في الذي يشعره دوما بالغثيان، ولهم عيون صـغيرة خبيثة كعيون فأر جائع ورءوس مسلطحة لزجـة كـرءوس الضفادع.. ثم كروش ضخمة.. ضخمة.. وهنا تساءل: (هل كان لوالدي كرش كبير ككرش أبي حسن.. وهـل يسـتطيع رجل له كرش أبي حسـن أن يحمـل (بـارودة) ويحـارب اليهود؟! أنا أبي حارب اليهود، وأمي قالت: إنه قتـل عـددا كبيرا منهم ثم استشهد.. قلت لها: استشهد؟!.. مـا معناهـا يا أمي..!! وقالت: (يعني مات ورايح يـروح علـى الجنـة طوالي..) وبكت وأنا بكيت ولعنت الدنيا والحرب.. وأشـياء كثيرة.. وخرجت لألعب مع زهير ابن الجيران وهمست له: أبي في الجنة.. فضحك.. ويومها وجدت في الطريق بجوار الخيمة عشرة قروش اقتسمتها وزهيرا، فاشتريت (هريسـة) و(جلول) وبقي معي قرشان.. ولعبت لأول مرة مع حسـان ابن صاحب البيت الكبير الذي يشرف على المخيم، وقد قلت له يومها بزهو: معي قرشان.. ونظر إلـى دون اهتمـام.. فعلمت أن القرشين ليسا بالشيء الذي يهتم له.

ولكن - ورغم عدم اهتمام حسن بالقرشـين فقـد - وجدت أن من الجميل جدا أن يجد الإنسان كل يـوم عشـرة

قروش.. وعدت إلى البيت ودنياي كلها قطعة فضية كبيـرة لامعة.. يغبش لمعانها وجه حسان الجامد اللامبـالي.. لكـن سعادتي لم تطل؛ فإن زهير الملعون أخبر أمي وعلم الجيران وطالبت (بهية) جارتنا بالعشرة قروش وضربتني أمي وأتت بي إلى أبي حسن الذي بادرها بخشونة وترفع:

- عشرة قروش في اليوم مع خصم ثمن ما يتلفه.

أجابت أمي بصوت مشروخ:

- موافقة.. الله يخليك.

وفي نهاية الشهر الأول استلمت ثلاثة دنـانير تـنقص ثلاثون قرشا.. كنت قد كسرت ثلاثة أطباق وأكلـت ثـلاث (علقات)، وكان أبو حسن يذكرني كل يوم بـأن أبـي كلبـا وكانت أمي تهمس لي كل مساء.. كان أبـوك نجـارا (قـد الدنيا.. تحمل.. معلهش يا كمال)..

وارتفع صوت معاد للمرة الثالثة:

- كمال.. ارفع (البوش).

وعاد من جديد بكومة أخرى من الأطباق، وأخرسـت يد المذياع ثم عادت وتركته يثرثر من جديد، وأزاح كمـال كومة من الأطباق النظيفة التي أتم غسلها وفرد كفيـه أمـام

وجهه وعاد يتساءل: (لماذا لا يذوب اللحم مثل الصابون..؟!) ورنت في أذنيه كلمات جافة:

- في إيش بتفكر يا ابن الكلب؟

فوجئ كمال.. ودون تفكير.. بإصرار طفولة معذبة.. بحرارة كرامة يراد لها دوما الامتهان.. صرخ في وجه أبي حسن:

- أنا مش ابن كلب.. إنت ابن كلب.

وهوت اليد الهائلة على الصدغ الطري.. ثم على رأسه وكتفيه وظهره وكل جسده.. وكمال منحشر لا يتنفس وكـأن كلماته الأخيرة قد استنفذت كل طاقاته.. فغدا دمية.. دميـة.. مهروسة.. لا حياة فيها.. وتكوم على البلاط بجوار الطنجرة وكتلة اللحم الهائلة تنتصب منتصرة مزمجرة:

- قوم لشغلك يا ابن الكلب.

نهض كمال والضوء في عينيه بخـار أصـفر ثقيـلٌ محرق.. ودوار عنيف يكاد يفجر رأسه، وألم فظيـع يلـوك لحمه.. استند إلى حافة حوض الغسيل ونظر فيمـا حولـه.. كان أبو حسن قد خرج فتنفس وتحسس بيد واهنة صـدغيه، ثم جنبه الأيسر.. وطفحت عيناه بدموع غزيرة.. محرقـة..

وكلمات أمة المسكينة تدغدغ جدران قلبه (معلهـش تحمـل يا كمال) ثم كلمات أبي حسن المهددة (المرة بخصـم حـق الصحن.. مرة الجاي بطردك يا ابن الكلب..) ومسح بطرف كمه المتسخ دموعه وصـدمت نظراتـه المكسـرة كومـة الصحون النظيفة.. وفكر ثم اتخذ قرارا..

بعنف وقوة وإصرار أزاح الكومة لتهوي على بـلاط المطبخ وتتناثر القطع البيضاء علـى كـل أرض المطـبخ وصوت في أذني كمال كالرعد أتى بأبي حسن.

نظر أبو حسن وكادت عيناه تقفزان مـن محجريهمـا وتراقصت أشداقه وأخذ كرشه الضخم يعلو ويهبط وصـاح بصوت مذبوح:

- عالدار يا ابن الكلب.. أوع توريني وجهـك بعـد الليلة. غادر كمال المطعم.. ونظراتـه المكسـرة تحاول ألا تكون كذلك، واتجه بجذل وأمـل إلـى الدكان المقابل.. دكان أبي محمد النجار..

«كتبت عام ١٩٦١»

أفاعي الماء

أفاعي الماء

عقارب الساعة في يدي لا زالت منذ أكثر من ساعتين تلتهم الأرقام بشراهة وإصرار.. ثمة شخص كان لا بـد أن يحضر.. صفحة وجهي مشدودة ملتصقة بزجـاج النافـذة، والشمس في بطن السحاب تلهث منذ أيام، وحبات المطر مـا فتئت منذ الصباح تغسل أدران أرض ما عادت تعرف طهرا، والماء يتجمع على أرض الشارع بركا صغيرة بـلا شـكل تصل بينها ألف أفعى لا تخيف، وحمار يجر عربة منهوكـة يركبها مخلوق ملفوف بحرام خلق أسود، ترك أمـر الجـر والقيادة، بحكم الموقف، للحمار!.

كل ما يبدو أمامي يوحي بأشد مشاعر الوحشة والكآبة والغربة، غربة ما كنت أشعر بها في زياراتي السابقة لهـذه المدينة الرائعة.. لكنها الآن تتملكني حتى العظـام.. داخـل غرفتي لا زالت رائحة الدفء تعشش في الأركان، وحقيبـة ملابسي مقفلة جاهزة تقبع بجوارها حقيبة ملابسه السـوداء، ورائحة المطر لا زال أنفي يمتصها من برودة زجاج النافذة فتتسلل إلى صدري ترطب بعض حرقته.. وأبتعـد بصـفحة

وجهي عن النافذة ثم أعود بها لتلتصق بالزجـاج.. وأشـعر بقشعريرة باردة تهز كل بدني، وموجة من نشاط افتقدته زمنا تتمطى في رأسي، وأظل أتفرس أفاعي الماء التي لا تخيـف تتلوى بنذالة في وحل الشارع.

هي في وهران، وأنا هنا، وهو في لا مكان وقلب أمنا مزقا منثورة.. يسعد قلبها لسعاة هند فـي وهـران ويغسـله رشاش أمل ورجاء لا زلت حتى الآن أريدهما.. ويموت هذا القلب ملفوفا بصفرة ورقة خطت عليها كلمات نعت لنا أخي صخر.. (مات صخر.. ودفن)..

كنا قد رسمنا للمستقبل خطة.. وبدا لنا أننا قد ملكنا هذا المستقبل.. هند تسافر إلى الجزائر لتعمل مدرسة متكفلة بذلك تكاليف دراسة صخر الجامعية.. راتبي يكفي لإعاشة أمـي ولمياء الصغيرة وأنا، وسافرت هند إلى وهران، وصخر إلى الجامعة حيث حصل على مقعد في كليـة الطـب.. ودقـات ناعمة على الباب وأسحب وجهي عن زجاج النافذة وأستدير هامسا:

- أدخل.

وتشق يد الباب ويدخل حاملا رائحـة مطـر المدينـة الحلوة التي ما عادت كذلك، ويجلس على طـرف السـرير وينسل منديلا ملونا من جيبه يمسح به حبات المطـر عـن وجهه الأسمر.. كم أحببت هذا الإنسان الرائع!.. كنـت قـد تعرفت عليه قبل أسبوعين فقط، وكان صديقي المحامي فـي القدس قد دفع لي باسمه قبل حضوري إلى هنا بعد أن تلقيت نعي صخر وقال:

- أنت وحظك.. أن كان قد نجا من سجونهم حتـى الآن فسيقدم لك أعظم مساعدة وإلا تدبر أمرك.

كان قد استقبلني في زاوية مطعمه المتواضع، وبعد أن ذكرت له اسم صديقي المحامي تلقاني بترحاب صادق عميق هادئ، وقدم لي وجبة متواضعة وتركني أنتظر في مكـاني ثلاث ساعات ليخلو المطعم مـن رواده، ويجلـس قبـالتي ويسحب من علبته لفافة ويقول بثبات:

- أية خدمة؟..

شعرت بقوة شخصية محدثي رغم بسـاطة مظهـره وقررت بسرعة الإجابة دون أية مقدمات وقلت:

- أخي يدرس الطب هنا.. مات قبل أيام في ظروف غامضة.. وأكمل هو:
- تريد أن تعرف من قتله.. أستطيع أن أقول: إنهـم المخابرات لكنني أكره التسرع.. أين تنزل؟
- ما نزلت في مكان بعد.
- حسنا إذن، تنزل في فندق «...» ما اسم أخيك؟

وأعطيته كافة التفاصيل.. وعلى مدار أسبوعين ظـل صخر يموت كل يوم ميتة.. كان ينقل لي كل مساء إشـاعة التقطها من شفاه بعض من لهم علم بظروف قتل أخي.. لكنه أكد لي في النهاية أنه في الظاهر مات في حـادث سـيارة، والقتل في حوادث السيارات في هذه المدينة يعني أن القتيـل قد أعيد قتله بعد أن يتم ذلك تحت نير التعذيب لتدفن الجريمة وتضيع معالمها تحت عجلات سيارة مجهولة تمزق الجسـد الميت.

وحشا منديله الملون في جيب معطفه الأسـود الكـالح وتمتم:

- حتى قبره فشلت في العثور عليه.. وها أنت ترى يا صديقي أنني لم أتمكن من تقديم أية خدمة لـك، وهذا ليس بغريب في بلد له ظروف بلدنا.

مد يده ذات الأنامل الطويلة الغليظة وشد علـى يـدي بقوة ولم ينبس ببنت شفة.. وماذا يقول.. بل ماذا سأقول أنـا لأمي المنتظرة الملتاعة. هل أقول لها: إن ألف ألـف باقـة زهر ستذبل في يدي قبل أن أعثر على قبر صخر.. وهنـد هل أتركها تحلم بصيرورة صخر طبيبا، به نسعد وننـتعش ونفرح.. هل أحيل ربيع تلال وهران يتبرعم أقحوانا ونرجسا في عينيها إلى عوسج وسويد؟!!.. ولمياء الصغيرة سـتنمو وتترعرع ومأساة صخر تنمو معها وتترعرع.

وأغادر الفندق وشمس المدينة لا زالت تلهث في طيات السحب والمطر ينهمر بغزارة تغيظني.. وأشجار البسـاتين حول المدينة ما عـادت تـذكرني ببيـارات سـاحل بلـدي المسروق، بل تبدو في عيني عيدان مشانق والغيمـات مـن فوقها أسراب غربان كثيفة، وأفاعي الماء لا زالـت تتلـوى بنذالة في وحل الشارع، والعربة المنهوكة لا يـزال يركبهـا

مخلوق ملفوف بغرام خلق أسود ترك أمر الجر والقيادة يحكم الموقف للحمار.

«كتبت عام ١٩٦٤»

سلة الملوخية

سلة الملوخية

إنه يوم عطلتي الأسبوعية، ورغم كونه يوم راحة لي فأنا أبغضه أشد البغض، وأتمنى لو أن الحيـاة كلهـا عمـل مستمر؛ ففي العمل راحة كبرى؛ فمن خلال دوران سـاعاته أنسى كل شيء ثم أعود إلى البيت ببطء وتثاقـل متحسسـا جسدي المتعب المتلهف للراحة والنوم، أما يوم الراحة هـذا اللعين، ففيه تبرز كل متاعبي فيستريح الجسد وينشط الفكر.

جلست كعادتي في ظل الجدار المتهـدم أمـام بيتنـا الصغير المتواضع أصوب نظرات بلا معنى إلـى شـقيقي الصغير يلعب بجواري ببنطلونه المزركش بأكثر من قطعـة قماش وبسمة حلوة تعلو شفتيه الذابلتين.. لك الله يـا أخـي عدنان، دنياك لهو ولعب وهذا شأن الطفولة، كم أشفق عليك من مستقبلك القريب الأكيد الشـقاء.. وأدرت وجهـي عنـه مستسلما لأفكاري مستعرضا صورا باهتة معتمة.

نظرات والدي الراجية وهو على فراش الموت.. عمي الغني البخيل يجبرني على ترك المدرسة، والبحث المصـر عن لقمة العيش.. أبو محمد الجزار بكرشه المنتفخ وشـتائمه

التي لا تنقطع.. أبو حسـين المقـاول العمـلاق ونظـرات الاحتقار التي يرسلها دوما وبدون حساب إلى من يـأتي بـه سوء الطالع للعمل معه.. على أفندي شاويش الورشة الرقيق. الطيب والذي لا زلت أعمل معه..

وينتشلني من أفكاري صوت عدنان..

- أسامة.. أسامة.. هذا ابن عمنا عاطف.

دون أن ألتفت شعرت بفيض من السـعادة؛ فعـاطف قريب من قلبي.. طيب إلى نفسي.. كذلك فأنا أعرف معنـى زيارات عاطف المتباعدة لنا.. كان عاطف يحمل سلة تتدلى مع جوانبها أوراق خضراء.. إنه يحمل سلة محشوة بعيـدان الملوخية.. وشعرت بنشوة الجائع المحروم تبدو لـه مائـدة حافلة بما لذ وطاب من نعم الخـالق الكـريم.. ولا عجـب فالملوخية هي أكلتي المفضلة.

أسرعت لملاقاته فسلمني السلة واستأذن عائدا كعادته، فأسرعت بها إلى والدتي وشقيقاتي، ووضعت أمامهن السـلة فأسرعت شقيقتي الصغرى إلى سحب عروق الملوخية مـن السلة وتمديدها على الحصيرة البالية باحثة عن اللـحم الذي

لا بد وأن يكون عمي قـد أرسـله مـع الملوخيـة.. فالملوخية في متناول الجميع، أما اللحم فدونه قلوب واجفـة وجيوب فارغة.. وأتمت شقيقتي سحب العيدان مـن السـلة فمددت عنقي كما فعل الجميع إلى جوف السلة لنرى كميـة اللحم، والتي رجوت سرا أن تكون كافية، فراعنـي - كمـا راع الجميع - فراغ هائل سحيق لا آخر له بدا لنا من فتحـة السلة.. وتفرق كل منا إلى زاوية من زوايا الغرفة وقد علت الوجوه خيبة أمل مخيفة.

تحاشيت النظر إلى من في البيت والملوخية ممددة في وسط الغرفة على الحصيرة البالية، وكأنها جثة فقيرة معـدم تنتظر صدقة البادية لتجهيزها ودفنها.. وشعرت بالجثة الممددة على الحصيرة تتمطى ثم تنساب سابحة حتى تصـل رقبتـي المنحنية، فتمد أصابع معروقة مرتعشة، فتطبق على رقبتـي بقوة وإصرار، وأحسست باختناق مفاجئ لم يخلصني منه إلا صوت أخي عدنان محدثا والدتي:

- هيا يا أمي نطبخ الملوخية.

فنهرته أمي بشدة فالتجأ إلي مستفهما وقال لي بصوت حاول ألا يسمعه أحد سواي:

- لماذا لا تطبخ أمي الملوخية يا أسامة؟

فاشتملتني حيرة واعترتني كآبة شديدة.. وكأنما شعرت شقيقتي الصغرى بذلك فقالت:

- لا يوجد لحم.

قال عدنان:

- وهل اللحم ضروري!

وهنا أن صوت أمي خافتا حزينا مشبعا بشقاء سـنين طويلة:

- لا تطبخ الملوخية بدون لحم يا عدنان.

فشعرت وكأن حكما بالإعدام قد صدر علـى الجثـة الممددة على الحصيرة البالية، وقد كنت آمل أن تسارع والدتي إلى إنقاذ الموقف وطبخ الملوخية بدون لحم.

قالت إحدى شقيقاتي:

- ما دام عمي يعرف أن الملوخية لا تطبخ إلا باللحم فلماذا لم يرسل اللحم؟

وقالت أخرى:

- كان يجب ألا نقبل هذه المنحة التقليدية مـن عـم لا يشعر بما نقاسي.

وهنا قالت أمي:

- لا تذكري عمك بسوء يا هيفاء!!؟

فانبرى عدنان قائلا ببراءة كادت تذبحني:

- إذن آخذ الملوخية وأطعمها خروف الجيران..

وصحت به بصوت جاف حانق ناقم:

- اخرج .. اخرج.. لا تُرني وجهك.

وأسرعت تاركا الغرفة وقد أطبقت بيدي على الثلاثين قرشا، وهي آخر ما تبقى في جيبي لأواجه به أربعـة أيـام تفصلني عن موعد اسـتلام الراتـب الضـئيل.. أسـرعت وخيالات سوداء تلوح أمـامي.. الملوخيـة الممـدة وسـط الغرفة.. أمي.. أخي عدنان.. خـروف الجيـران.. عمـي اللعين.. والجثة الممدة التي أطبقـت بأصـابعها المعروقـة المرتعشة على رقبتي حتى انتزعت مني قوت أربعـة أيـام طويلة.. الثلاثين قرشا.

«كتبت عام ١٩٦٠»

بـــــرازق

برازق

إن كنت من سكان الحي المتواضع الذي يقع عند آخر منحدر تصل إليه المدينة، فلا شك أنك تعرف «بكر» بـائع البرازق، حيث تراه دوما بقامته الطويلة، هذه القامـة التـي تبدو دوما في إطار مشوش، سروال بني كالح يمسك بخصره النحيل وتلتصق بمؤخرته قطعة قماش خضراء خيطـت بـه بقصد إطالة عمره، يكمل تشـويش هـذا الإطـار قميصـه ذو الألوان المتعددة المتنافرة، لا حذاء هناك، وما حاجته بـه وقد اكتست قدماه بطبقة جلدية سميكة لا حيلة لقطع الزجـاج والأحجار المسننة ولا حتى المسامير معها، ولكن كل هذا قد لا تلحظه منذ الوهلة الأولى، سـتلاحظ ولا شـك الصـينية المستطيلة التي رصت عليها أقـراص البـرازق الصـفراء المسمسة على شكل هرمين كل يقابل الآخر ثم صوته القوي الحلو المغناج «برا.. ز ... ق» ونوادره الحلوة التي يتحـف بها كل من يمر به، فيثير موجة من الضحك تواكبـه أينمـا توجه.

وأخيرا يستقر بـه المقـام أمـام صـالون الحلاقـة المتواضع فيضع ركوة من الخشب ذات أرجل ثـلاث علـى الأرض، ثم ينزل الصينية من على رأسه لتقبع على الركـوة ثم يعود إلى مط صوته من جديد وبحيوية أكثر:

- يا الله يا ولد.. برازق.. برازق بكر يا ولد.

يتجمع الصبية من حوله، وتمتد الأيدي الصغيرة بقطع النقد الصفراء، كل خمسة فلسات لها قرص ونكتة صـغيرة حلوة.

كان يطيب لي أن أمر كل يوم ببكر أثناء عودتي مـن المدرسة ظهرا فيقابلني بلهجة حلوة:

- برازق بكر يا أستاذ.

ويناولني قرص الحلوى الهش المسمسم وأنقـده ثمنـه فيردف بكر قائلا:

- اسمع أحدث نكتة يا أستاذ.. واحد حرامـي دخـل بيت.. ويكمل النكتة.. وجميعها حلوة مستساغة.

في كل مساء وأنا عائد إلى البيت كنت لا أجـده فـي أغلب الأحيان فأعرف أنه قد باع جميع أقراصه، فأتصـوره سعيدا هانئا يجلس مع زوجته يطعمها الأقراص التي كسرت

فلم تعد صالحة للبيع ثم يروي لها كل النوادر التي رواها في ذلك اليوم لزبائنه.

افتقدته يوما فما رأيته حيث تعودت أن أراه ودام غيابه أربعة أيام ثم عاد ليستقبلني الاستقبال الحافل المعهود.

قلت له:

- طالت غيبتك يا بكر.. قلقت عليك؟..

فيغمز بعينه ويقول والسعادة تكاد تقفز من عينيه:

- عقبال عندك يا أستاذ.. لقد اصطحبت زوجتي إلى القرية لتضع قرب والدتها.. تصور يا أستاذ، بكر سيصبح أبا.. هذه آخر نكتة..

في يوم جمعة كنت أقضي بعض حوائج البيت، فـإذا صوت بكر يلعلع آتيا مع رأس الشارع فتراه يمد يـده إلـى الصينية وبمهارة يسحب قرص البرازق فيسـلمه للمشـتري ويتسلم الفلسات الخمسة ويتابع النداء.. وفجأة يسكت الصوت ويسود الشارع الصمت.. لقد داس بكر على قشرة موز ألقت به أرضا ونثرت كل أقراص البرازق على الأرض فتكسـر معظمها واتسخ الباقي.. ونهض بكر ونظر حوله فتخيلته قائدا

مهزوما لمعركة فاشلة وأشلاء القتلى تحيط به.. أكثـر مـن أربعمائة قرص ثمنها ديناران هي كل رأسمال بكر..

تقدمت من بكر وأحطت كتفه بذراعي ومـددت إليـه بورقة نقد من فئة دينار فأجفل، وتقـدم صـاحب صـالون الحلاقة المتواضع وقال بصوت حاول أن يسمعه للجميع:

- عيب يا أستاذ.. أنت غريب وبكر واجبه علينـا.. نشكرك.

أخرج صاحب الصالون من جيبه منديلا ملونا وضـع فيه قطعة نقود فضية ودار على الجميع، كـل يضـع فـي المنديل ما تجود به نفسه.. واحد فقط رفض أن يساهم بحجة أن ذلك يفسد بكر الذي يجب أن ينتبه أكثر.. هذا الواحد كان صاحب مخزن البضائع الكبير في السـوق!!.. وأحصـيت النقود فإذا هي تقل عن الدينارين بقروش قليلة وضعتها فـي المنديل.

في اليوم التالي مررت ببكر وسلمته الخمسة فلسـات وسلمني قرص البرازق وانتظرت النكتة ولم يتكلم فغمـزت متسائلا: فإذا بدمعتين تترقرقان مع عينيه فسألته:

- ما لي أراك مهموما يا بكر؟

- زوجتي مريضة وابني الصغير يكاد يموت..

وحاولت أن أساعده فرفض، وألحـت وأمعـن فـي الرفض قائلا:

- شكرا يا أستاذ لقد قبلت بالأمس حسنة ولن أقبـل اليوم أخرى. وتركته وغصة ألم تكاد تفجر حلقي..

في اليوم التالي كنت أستعجل عقارب الساعة لأعـود إلى البيت مارا ببكر لأطمئن.. وكان المكان الشاغر ينبئنـي عن الحدث، وتمنيت أن يكون الطفل الفقيد فهو يعوض، أمـا الزوجة فأقراص بكر لن تأتي أبدا بأخرى.

غاب بكر عن الحي أكثر من سنة، وحاولت أن أصل إلى أخباره فما تمكنت، فبدأ شكله يغيب عن مخيلتي وصوته الممطوط يتلاشى من ذاكرتي وإن كنت كلما سـمعت نكتـة حلوة أتذكر بكرا.

في بداية العام الدراسي الجديد نقلت إلى مدرسة فـي حي آخر من أحياء المدينة لا فرق بينه وبين الحي السـابق سوى ببؤس سكانه الأكثر وضوحا، ومضى أكثر من أسبوع وأنا أحاول أن أجد لي مسكنا ملائما فلم أجـد، فاضـطررت إلى استئجار بيت على الشارع يملؤه الضجيج ليـل نهـار،

ونقلت أثاث بيتي البسيط في المساء ونمـت ليلتـي الأولـى والحشرات البغيضة يستثيرها حـر خـانق تهـاجمني دون رحمة.. وأفلحت أخيرا في النوم وأنا ألعن مهنـة التـدريس التي تدفعني كل عام إلى السكن في حي جديد.

في الصباح صحوت على صوت خلتـه يـأتي مـن السماء.. دعكت عيني والصوت يهـاجمني.. بـرازق بكـر يا ولد.. الاسم نفسه لكن الصوت مختلف تماما.. ذاك صوته حلو ممطوط صاف.. وهذا صوت أجوف مبحـوح لا حيـاة فيه، وقلت: عله اسم واحد لشخصين مختلفـين.. والبـرازق نفس السلعة.. بعد تردد قمت إلى النافذة وفتحتها وخرجـت بنصف جسدي منها ورأيته.. رأيت بقية المأساة التي شاهدت بدايتها في الحي الفقير منذ عام.. رأيت بكرا بلحمه وقد ذاب، ودمه قد جف.. يضع صينية البرازق على عربة لها ثـلاث عجلات وقد استقر في قعر العربة طفل صغير يرضع إبهامه لا يزيد عمره عن عام واحد.

«كتبت عام ١٩٥٩»

تمـــــزُّق

تمزق

انحنى قليلا وأزيز الطائرة لا زال في رأسه، ومـذاق القيء يفسد طعم لعابه في فمه ونزل من السيارة ثم هبط مع درجات (باب العامود) وأبناء عمه عبد القادر، أمين، هنـد، وماجدة يهبطون ببطء من خلفه.

صاح صوت:- (جرايد.. جرايد).

وعلا صوت نسوى رفيع منهوك: - (فستق.. فستق).

ثم يلتفت، هبط ببطء وتثاقل لتظلله قبة الباب الكبير ثم لينحني يسارا.. الحياة كدأبها دائما تسير هادئة رتيبة ناعمـة كما بدأت منذ الأزل وما عدا ذلك فزيف مآلـه إلـى زوال.. الوجوه صاعدة هابطة بهدوء ونشـاط سـوى ذاك الطفـل الصغير الحلو، الذي يشد يد أمه لتشتري له كرة ملونة مـن (البسطة) التي تسد آخر الزقاق القصير لتدفعه إلى الانحنـاء شرقا.. إصراره الطفولي وعناده اللين الطري ذكره بأسـامة – أخيه الصغير – ود صادقا أن ينحني ليحمله بين ذراعيـه ليتملاه بشوق وحب، ثم يشتري له الكرة الملونـة ويهمـس (هذه.. لك) لكن قدميه تسمرتا في بلاط الزقاق، فغاب الطفل

دون أن يحصل على الكرة.. وفكر.. (تبالها مـن أم تحـرم طفولة ابنها من متعة تافهة.. لكنها عظيمة.. لم تكن أمه – أم أسامة – لتتصرف كهذه، ستسارع إلى شراء الكرة وتقـدمها لأسامة راضية حانية سعيدة. (قد تكـون النسـاء كريهـات سخيفات، لكن أمه ليست كذلك..). وتزحف قدماه وصـورة الطفل لا زالت تزحم عينيه.

يرتفع صوت قوي منغم:- (شبح الحرب يخـيم مـن جديد)، (جريدة)، يعقد جبينه يتقزز:

- (تفو).

النهار برعم طري يبتسم على رأس شجرة جـرداء.. والفراغ المنبسط أمام المقهى الذي يقع على يسار الهابط مع باب العامود مزحوم بالمقاعد، وجوه بعضها ساهم وبعضـها مدفون بصحف مختلفة، وأكثرها لا معنى فيه، وجـه واحـد نظر فيه.. وجه الساقي.. فكر.. (إنه لا يشبه أبـدا.. أبـدا.. قد يكون هذا طيبا مرحا، لكنه لن يكون في طيبـة ومـرح (سلامة) ساقي مقهى حينا..) وسحب نظراته الفاحصة عـن جسد الساقي الطويل النحيف وتابع هبوطـه مـع الـدرجات الملساء الناعمة.. تحير أن يتجه إلى الزقاق المـؤدي إلـى

(الحرم)، أنه هادئ وهو يكره الهدوء.. فارغ وهو قـد مـل الفراغ.. ليتجه إذن إلى الزقاق الآخر.. الحياة تزكمه فـيلفظ شخوصها كل حين.. وجوه.. بيضاء.. سمراء.. متهدمـة.. مشدودة. وينظر في حذائه في محاولة للتغلب علـى شـعور قوي يتملكه في كل حين.. شعور بأن يصـفع إنسـانا.. أي إنسان – (فتح.. شو أعمى!!).

تمنى أن يكون كذلك على الأقل؛ حتى لا يرى الوجـه المتهدم (المزوق) الذي صدم صاحبته وهو ينظر في حذائه..

- آسف..

رفع يده وأراد أن يصفعها.. لكنه سحبها ونفخ في كفه المضمومة وتركها تتدلى مع جانبه..

ود لو يميل بكتفه ليشارك (العتـال) العجـوز حملـه الثقيل.. إنه ينوء تحت ثقله وفكر «هذا الإنسان لا يفكر سوى (بشلن) يقبضه تلو (الشلن) وأرغفة الخبز وحزمة الفجـل.. وقرش أبيض يخزنه لليوم الأسود ثم.. خـور.. فكهولـة.. فموت.. أما كيف يموت؟ فلا تهمـه الطريقـة..» وتـنفس الصعداء، لقد حط حمله على باب بقال فـي نفـس الزقـاق

وانزلقت نظراته عن وجهه مع حبات كثيرة من عرق غزير يبارك تعبه..

لم تكن لديه رغبة في الطعام لكن رائحة الشواء التـي تعبق جو الزقاق دفعتـه لأن ينظـر.. (مطعـم).. الظلمـة المرابطة على مدخله والباب المقوس العتيق وقد تدلت مـع أعلى شقوق حجارته أعشاب جافة.. دخل.. كل شيء جديد.. المناضد تزهو بأغطيتها اللامعة وبأقماع الورق المغروسـة في أكواب شمعية بيضاء.. وتوجـه إلـى الـركن الـداخلي المنعزل من المطعم.. لا زالت المنضدة على حالها، القـوائم الخشبية السوداء الغليظة والفرش الرخامي وشـرخ خفيـف تراكمت فيه بقايا داكنة تجرح نقاء بياضه، ونظر فيما حولـه مفكر (أنه ليس معي فلا طربوشه الأحمر علـى المشـجب ولا عصاه تتدلى مع الحائط بجـوار الطربـوش، ولا هـو يداعبني.. «كُلْ .. كلْ يا عدنان قبل أن يدركك موت لا بـد منه.. أو شيخوخة لا طعم للحياة فيها..» هو مات، أمـا أنـا فأتصور الموت نكتة سخيفة والشـيخوخة حقيقيـة مرعبـة مهددة) وخرج وشعور بغبطة يكاد يدفعه ليصـافح صـاحب المطعم لإبقائه على أثر قاده إلى أبيه.. وفكر (عله جيد الحظ

فلم يمكن الشيخوخة منه، فداهم بنفسه الموت)، كان يعـرف أنه سيموت، كتب لي في آخر رسالة: «قـد تكـون هـذه.. رسالتي الأخيرة، رائحة الحرب تزكمني وتكاد تخنقني، وأنا لا بد بها مختنق، بطيه حوالة نقدية كبيرة ستمكنك من إتمـام تحصيلك العلمي، سأحاول إرسال العائلة طرفـك، أمـا أنـا فلا بد أن أبقى.. أستودعك الله».

لم أستلم رسالته إلا بعد أيام من إعلان استشهاده، وفي الرسائل التي وصلتني بعد ذلك قال لي البعض: «تستطيع أن تفخر بوالدك» لكن أحدا منهم لم يذكر لـي كيـف مـات.. المهم.. لقد انتهى.. ودار صـاعدا مـع درجـات (حـارة النصارى) وتساءل: (هل أنا ثائر الأعصاب؟!) ورفع عينيه قليلا لتصدما عجوز مهترئة مسربلة بالسواد، تهبط متعلقـة بذراع شاب في أول عمره، وفكر متسائلا: (إلى أيـن؟) ثـم تفرسها (علها محظوظة، فرغم هذا السواد الحالك الذي يلفها فهي لا زالت تشارك الحياة نشاطها وتبرز معناها أنها تمثـل طرف الحياة العابس لكنها تحيا وتتحرك.. قـد تكـون فـي طريقها لزيارة إحدى بناتها مستعيدة عبر شبابها شبابا ولـى مخلفا كومة اللحم المهترئ، لكنها ورغم كل شيء لا زالـت

تملك الصورة التي تستعيد عبر خطوطها أياما حلوة عاشتها) وتنهد ثم نظر في حذائه مفكرا: (على أمي مثلها كومة لحـم مهترئ.. تتأبط ذراع أسامة زاحفة بدون حياة مع (العجمي) تتوجه إلى حيث يسكن الذي تـرك الطربـوش والعصـا.. فيتركها أسامة ليعود إليها بعد ساعات لينتشـلها مـن علـى القبر..).

يافا.. القاهرة.. غزة.. تتراءى له كل مدينة من نافـذة خاصة.. غادرهم فـي يافـا كعادتـه لا قبـل ولا دمـوع: (أستودعكم الله)، (موفق)، (مع السـلامة) وركـب القطـار وغادر يافا، ولا زالت بياراتها في عينيه أغصـانا خضـراء تتعلق فيها فوانيس صفراء لامعة، تبرز من بين أوراقها كف أسامة الصغيرة تهتز مودعة..

- لنعد.

قال ابن عمه عبد القادر:

انفتل.

لنعود. شد قبضتي يديه المدفونتين في جيبي سـرواله وشدهما إلى أسفل بعنف وإصرار وفكر: (لماذا لـم أعـد.. لا زالت الحروف السوداء في عيني حمراء لاهبـة تتبعـث

النار المدمرة في دمي، واليأس الغاضب في قلبي، والتمـزق الحزين في نفسي..).

«يافا ١٩٤٨/٢/١٢

عدنان لا بد من عودتك إلى يافـا.. أمـك تمـوت.. حضورك سيبعث فيها الحياة..

عمك»

(لم تمت.. وأنا لم أعد..)

وقفز بتفكيره إلى القـاهرة.. فنجـان قهـوة وحطـام عشرات اللفائف وثرثرة المذياع، وهـواء رطـب ممجـوج يتثاءب على حافة نافذة غرفته في (البنسيون) ويقرص مفتاح المذياع فيخرسه ثم يقرصه فيعود إلى ثرثرتـه.. هـزائم.. انتصارات.. قتلى.. جرحى.. من المعني؟.. هـذا لا يهـم.. المهم يافا (سقطت) وهو في القاهرة، وأمه وأسامة في المدينة (الساقطة).

وتساءل مرة ثانية (هل أنا ثائر الأعصاب؟).

توقف فجأة.. وحملق فيها.. ومرت.. شابة بعمر ورد نيسان وبجمال زنبقة بكر.. ينسدل شعرها ناعما طويلا.. من تحت (الإيشارب) الحريري الأبيض كأنه شلال ليل.. صعدت

مع الدرجات فدار ولا زال يتفرسها.. ثم عاد وهبط مترنحـا ممزقا.. ليقفز بتفكيره إلى غزة.. (تلك طاهرة كحبـة نـدى ندية، كغصن بان، رحيمة كقلب أم.. تلك حبيبتي.. كلماتهـا لا زالت تعشش في قلبي «عدنان.. ابتسـم فالحيـاة بسـمة، عريضة وليس من العدل أن تشوهها بعبوسك الدائم.. تلـك التي في يافا تود لك الحياة أجمل بسمة.. فلا تطمس لها هـذا الأمل.. ابتسم في وجه كل شمس صباح؛ فشمس غزة هـي شمس يافا.. هي للجميع» كان يغبطها.. ثـم يبتسـم.. (أنـا أبتسم.. لكن انظري إلى بسمتي يا (لمياء) أليسـت جافـة.. بلا معنى.. كالحة.. ممجوجة.. ليت لي بعض الأمل الـذي يدفئ قلبك..).

.. نفس رائحة الشواء.. (المطعـم).. الشـرخ الـذي يجرح نقاء بياض رخام الطاولة يجذبه.. ويدخل من جديـد.. ويجلس، وتفرس الحائط القائم دون سواد المشجب.. وتراءى له (إيشارب) حريري أبيض منقط ببقع دم حمراء تعبث بـه نسمة رطبة ليربت على الطربوش الأحمر وليلـف العصـا المتدلية.. واستعاد دفء أمل نبت في برودة قلبـه لتطمسـه بسمة الموت الباردة الصفراء الساخرة.. وتذكر بلوعة.. (في

هذه المرة لم أكن بحاجة لمن يكتب لي كيف ماتت لميـاء.. ماتا بنفس الطريقة.. قنابل تتناثر.. ناثرة الموت.. طربـوش وعصا وقبر بارد في يافا.. و (إيشارب) حريري أبيض منقط بالدم وقبر بارد في غزة.. ثم شجرة بلا جذور ستذروها أول هبة قوية..).

(كتبت عام ١٩٦١»

جسر منتصف الليل

جسر منتصف الليل

ثمة طير أسود يحوم في سماء الجسر

شريط معتم يدور أمام عينيه...

قطار مسعور يهدر في رأسه..

يدق بعنف جدران رأسه.. ينفث دخانا بلـون الليـل.. الدخان في عينيه.. القطار يتنفس من عينيه.. قـدماه تـدقان أرض الجسر برخاوة وفتور.. الشمس تلسع جسده المنهـوك بسياط نزقة من نار لا ترحم.. الشريط يدور وعيون تطفـح بالتصميم ترقص فيها فرحة النصر.. من هذه العيون نظرات متباينة تنصب عليه.. تطوقه.. تشرنق جسـده المتهـاوي.. نظرات غضبي، مشفقة، فارغة، متسائلة.. شامتة.. الطـائر الملعون لا زال يحوم في سماء الجسر، ماء النهـر الـداكن يتلوى من تحت حديد الجسر وقطعة خشب طافية يتلاعب بها موج واهن وشجيرات خضراء تتدلى رءوس أغصانها فـي ماء النهر، ورأس بندقية بارد منغرس في ظهره، وضـربات أقدام قوية متحفزة تضرب أرض الجسر من خلفه، والقطـار

لا زال يتنفس عن عينيه وصور قريبة بعيدة يكاد يطمسـها دخان القطار في قلبه...

الصوت الملعون لا زال في أذنيه ووجه أحمر مكتنـز وجسد هائل وكرش ضخم وأشرطة ومـداليات تتـدلى مـع الصدر المنبسط ثم.. أمر.

- ستتحرك الفرقة بكاملها في الأسبوع القـادم إلـى (...). همهمة عنيفة تمور في الصدور وشرارات غضب تقدم في العيون.. وصمت...

هل ستقوى على احتمال الصدمة؟ سيعقدان قرانهما في الأسبوع القادم.. لن يكون هناك قران.. سيتركها، سـتخبرها أمه بسفره المفاجئ.

- ستقدر الموقف يا بني.. أنت الذي تخاف اللقاء... اذهب وودعها.
- أرجوك يا أمي.. أنا لا أحتمل رؤية دمعة تترقرق في عيني (سوزي) فكيف بالله إذا كانـت الدمعـة وليدة عينين يبحر فيها يأس.. يكويهمـا خـوف، يغشاهما ضياع.. لا.. لن يكون وداع...
- آه..

كفى بالله يا أمي.. لقد رتبت حوائجي.. وهناك رسالة لسوزي، أراك بخير...

- .....

إنها المرة الأولى التي يركب فيها البحر.. تكوم فـي ركن من أركان العنبر الضخم وارتفع هدير محركات الباخرة ومزق أعصابه صوت صـارخ وانطلـق مـن البـاخرة.. الصمت.. لفافات التبغ تتدلى مرتخية مع شـفاه الجنـود... صوت جندي ينطلق مرددا مقاطع أغنية لها كلمـات بذيئـة والكل يرددها من خلفه.. الحر قاتل في العنبـر... لا سـبيل إلى الخروج.. طيف (سوزي) يلوح أمام عينيه معلقـا فـي سحب دخان التبغ الذي يغبش فضاء العنبر.. نشيج أمه فـي أذنيه.. ودوار عنيف يسيل من رأسه يكاد يمزق أحشاء فـي جوفه.. غيبوبة طويلة طويلة.. وصحوات بليـدة، ونظـرات حانية وهدير متواصل، ثم أرض رطبـة وأشـجار كثيفـة، وهواء لزج وشمس نارية، وأيام يبصم الموت كل سـاعاتها، ولحظات إشراق نادرة يتنسم عبيرها من صفحات رسائل أمه و (سوزي)... ونظرات تحد وتقزز تكبله في كل شبر مـن كل شارع وحقل يمر فيه...

نفس الصوت.. إنما الأمر يختلف الآن.. الوجه الأحمر أزرق.. الجسد الهائل متهدم.. الكـرش الضـخم مترهـل.. وليس ثمة من أوسمة وميداليات، بل ثياب الميدان يبقعها عرق غزير... كل شيء يختلـف الآن... انهزامـات متلاحقـة.. الموت طوفان عنيد يغرق كل يوم المزيد من جنود الفرقـة.. الرطوبة المتزايدة والحـر القاسـي والمسـتنقعات المميتـة والعيون المتربصة في كل مكان وفي لا مكان... كـل هـذا يجعل من واقع الفرقة واقعا مؤلما.. كل شيء يختلف الآن... لو عاد الآن إلى وطنه في الباخرة.. فلن يكون هناك الكثيـر من اللفائف المدلاة برخاوة مع شفاه الجنـود.. لـن ينطلـق صوت الجندي مرددا أغنية كلماتها بذيئة... حتى لو انطلـق فلن يكون هناك الكثير ممن يردد الأغنية من خلفه، لن يكون هناك الكثير من سحب دخان التبـغ ليتعلـق فيهـا طيـف (سوزي)... كل شيء يختلف الآن.. شيء واحد لا زال على حاله.. الفحيح.. لا زال مصمما آمرا..

- هذا هو مكان الجسر.

قال: هذا وهو يشير بأصبعه علـى مكـان مـا فـي الخريطة المبسوطة أمامه.

- إنه يبعد عنا ثلاثة عشر ميلا.. ستسير مع جوانب المستنقعات ثم تتجه غربا لتسير مع أشجار الغابة التي تحاذي النهر.. ستجد لك مكانا تختفي فيـه... في الثانية عشرة ظهرا يجري تغيير الحراس على الجسر وفي مثل هذا الوقت من النهار لا يتوقعون أي هجوم على الجسر؛ لذا لن تكون هناك حراسة مشددة، اقطع بمديتك بعـض أغصـان أشـجار المنطقة، واشبكها في جسدك ثم تزحف.. لا تقترب من النهر.. حتى إذا وصلت طرف الجسر المقـام على اليابسة، سر بمحاذاته ثم اقفز في الماء سابحا تحت الجسر.. ثبت الألغام فـي القـوائم الأربـع الرئيسة للجسر.. وتذكر أنك يجب أن تبتعد عـن الجسر في حدود دقيقة واحدة.. اضغط على الزر الرئيسي وبعد دقيقة واحدة ستنفجر جميع الألغام.. تستطيع أن تتحرك الآن..

- كل شيء يبدو عاديا.. صمت ثقيـل يخـيم علـى المستنقعات الممتدة إلى حيث لا يعلـم، وطيـور ملونة تستظل في تلافيف الشـجر وطبقـة مـن

رطوبة دائمة كدخان يغطي الأرض اللزجة. وسار وهو يتفادى أن تنزلق قدمه فيغوص في المستنقع.. وصل النقطة التي يجب أن يتجه منها غربا إلـى الغابة التي تحاذي النهر، فجلس مرتكزا بظهـره على ساق شجرة ضخمة، وأشعل لفافة وتحسـس حمله المميت وهاجمه طيف (سـوزي) وطيـف أمه.. هز رأسه بعنف، إنه لا يريد أن يضـعف.. كلا.. أنه لا يريد.. الفحـيح فـي أذنيـه وقـدما (سوزي) أمامه مغروستان فـي الأرض اللزجـة ووجه أمه مترنح بلا لون، بـلا حيـاة، ودمعـة (سوزي) تكاد تغرقه.. فيغرس اللفافة في الأرض ويرفع حمله ويعطي للأطياف ظهره ويمخر الغابة بخفة وحذر.. وصل جانب الغابة المحاذي للنهر.. يتلوى في انسيابه بين شطآن معشوشبة متعرجة.. قطع بمديته بعض الأغصان، وشبكها حول جسده فبدا كشجيرة صغيرة، تحرك محاذرا أن يمر بـه من يشتبه في أمره.. ومر بشيخ يعتمر قبعة واسعة من قش وقميص أزرق ممزق، يصطاد السمك من

النهر ونظر في الساعة.. هنـاك نصـف سـاعة تفصله عن الثانية عشرة، والجسر يبدو من البعيد كأنه عيدان حطب معلقة في الهواء. وغذ السـير، يجب أن يصل إلى قرب الجسر في الثانية عشرة.. وتراءى له الجسر عـن قـرب بهيكلـه الضـخم وأعمدته المتداخلة وشبح جندي يرتكز نظره على سور الجسر الذي في اتجاهه.. دخل أسفل شجيرة جد قريبة من الجسر وشعر براحة قوية واطمئنان عارم وتمنى أن يمنح بعض وقت يغفو فيه تحـت الشجيرة.. لكن هذا لن يكون.. الفحيح في أذنيه.. الفحيح في أذنيه.. وعيناه مسـمرتان فـي ظهـر الجندي المرتكز على سور الجسر.. وأقبل شـبح من الضفة المقابلة للنهر وسار على الجسر ثم أخذ مكان رفيقه، ونظر في الساعة.. أنها تشـير إلـى الوقت المحدد.. فتح الحقيبة وأخرج الألغام وبـدأ يزحف ببطء بين الشجيرات التي تكسـو الأرض التي تفصله عن الجسر وعيناه في ظهر المرتكـز على سور الجسـر... إنـه يقتـرب... أنفاسـه

تتضارب بعنف فـي صـدره... عـرق غزيـر يغرقه... ينز مع جبهته.. ورقعـة الأرض بينـه وبين الجسر تتقلص، إنـه يقتـرب.. سيصـل.. سيصل.. ويتابع الزحف ونصل حاد يكاد ينغـرس في ظهره، وقبضة قوية تطبق على عنقه وصراخ بلغة لا يعرفها أتى بالجندي من علـى الجسـر.. وقبعة واسعة من قـش وقمـيص أزرق ممـزق وخنجر وقبضة فيها رائحة سمك طازج قاداه إلـى أول الجسر، والألغام تتدلى ميتة وقطار مسـعور يهدر في رأسه.. يدق بعنف جدران رأسه.. ينفث دخانا بلون الليل.. القطار يتنفس من عينيه وطيف (سوزي) يتسرب من عينيه مع دخان القطـار... وثمة طير أسود يحوم في سماء الجسر.

«كتبت عام ١٩٦٣»

الخبــز المر

الخبز المر

في البلدة الصغيرة التي تقبع عند أقدام جبـال جـرداء أكثر أيام السنة، والتي يمر من وسـطها الجـدول الصـغير الهادئ ليذبح جدب الأرض خالقا فيها نيسانا دائما يظلل هذه البلدة، ينتهي بحر الخضرة بشاطئ أشيب أغبر تنتشـر فيـه بعض النباتات.. إنه منجم الفوسفات بقرب بلـدة الرصـيفة حيث أعمل مع مئات من العمال.

في الصباح الباكر نذهب إلى المـنجم، فنتوجـه إلـى مخزن العهدة لنتسلم أدوات العمل، ثم نسير مـع أول الخـط الحديدي الضيق الذي يخترق صدر الجبل فأدفع العربة عبر النفق الممتد داخل الجبل مثبتا خوذة العمـل علـى رأسـي، فما يلبث الجبل إلا ويبتلعني مع مئات العمال لساعات طويلة قاسية، تنهش خلالها من أحشاء الجبل ترابا أبيضـا، رطبـا نضعه في العربة، ونعود بها عبر النفق إلى الخـارج حيـث نفرغها، وتسجل لنا في السجل عربة واحدة وفي خانة مقابلة خمسة وثلاثون قرشا.

كان عملُنا قاسيا، وكنا مهددين بالموت كـل لحظـة؛ حيث الانهيارات متوقعة كل يوم، إضافة إلى الرطوبة القاتلة والضوء الضئيل، لكن هذه المخاطر لم تكن تتملكني إلا فـي اللحظات الصباحية التي تواكب ذوبان النور في ظلمة النفـق الأسود. ومع دخول النفق والتوغل في قلب صـدر الجبـل يزاولني الشعور بالخطر، ثم يوقظني صوت (أبـو خمـيس) يأتيني من نفق جانبي صغير:

- هه... هذا أنت يا فائق.. لماذا تأخرت؟

أوقف العربة وسحب من جوفها أدوات العمل: فأسـا وطورية، وقُفة وفانوسا صغيرا واتجه إلى أبي خميس:

- صباح الخير.. عل التربة هنا لينة.

ودون أن يرفع رأسه يجيب:

- إنني أعمل على كل حال..

وتغيب في ضباب العمل الأصفر الثقيـل والرطوبـة القاسية تولد البرد الشديد، والوحدة التي تغلفنا تزيـد العمـل إرهاقا وصعوبة، وكلما رفعت رأسي عن قفة التـراب أجـد (أبا خميس مكبا على عمله بجد ونشاط لا يتناسبان مع سنينه

الخمسين. وكلما نبهته إلى خطورة اندفاعه الجنوني في العمل يتنهد ويقول:

- يا سلام.. ماذا يهمك.. لا زوجة مريضة تنتظـر الطعـام والعـلاج، لا أولاد يهـددهم الجـوع.. لا مدارس ولا مصاريف. ويصـمت، يتفرسـني، كنت أعلم أنه يحبني.

في فترات الراحة القليلة التي كنا نقتطعها من ساعات عملنا نأكل لقيمات جافة جفاف أيامنا، نرطبها بحبة بنـدورة مرة وجرعات من الماء في أكثر المرات. في هذه الفتـرات كنت أحاول أن أنفذ إلى سريرة (أبي خمـيس) حيـث كـان يتضايق من أسئلتي، فهو يأبى على أحد أن يحطم الشـرنقة التي يضع نفسه داخلها، ومع مرور الأيام استطعت أن أحطم شرنقته، وصنعت خيوطها حبلا من الثقة والألفـة.. حـدثني عن كل دقائق حياته، عن يافا، عن بساتين البرتقال التي تشبه سماء خضراء مرشوقة بنجوم صفراء لامعة، حيث تنتهـي هذه السماء بأفق رملي أشقر فاتن، حدثني عن معمله الصغير الذي تركه هناك وترك معه شظايا قلبه الذي تفجر حزنا على ابنه البكر وهو يقضي هناك في سبيل بلاده.

حدثني عن شقاء ما بعده شقاء عاشه بعـد أن تـرك يافا.. لقد عرفت معنى الجوع المجرم، وذقـت طعـم الـذل المحرق، وصارعت لسعات البرد القارص، وعشت مـرارة فقد الولد تلو الولد. لمست كل هذا يسيل كلمـات مـن فـم (أبي خميس ويسقط حبات جمر من عينيه ويرتسم انتفاضات وخلجات وتشنجات على يديه ووجه وجسده.

قال لي ذات يوم:

- أنت شاب يا فائق، أما أنا فأحس كل شيء يهـرب مني بعد أن هرب شبابي، النور يذوي في عينـي، والقوة تتسرب مع عرقي، والدم يجف في عروقي، والرطوبة تحطم ضلوعي، والعمر يهرب، ويهرب ثم لا يلبث أن يتعب من الهرب فيستريح ويـريح راحة لا تعب بعدها.

وكنت أتصدى بحماس وحب:

- لكنك ما زلت قويا ونشيطا، بل وأنشط مني، فأنت في المعدل تنتج ملء عربتين يوميا، بينما لا أنـتج أنا سوى عربة واحدة.

يقول بمرارة:

- أنها ليست القوة التي أريد، إنها القطرات الأخيـرة أستقطرها بجشع وعجلة، إنها رعشة الشمعة التي تنطفئ.

كان دائم التحسر على أيام شبابه، رغم ذلك كان أنشط عامل في منجم الفوسفات، كان كل همه أن يلبـي حاجـات زوجته المريضة وبناته الخمس، زوجته المريضة بحاجة إلى الطعام الجيد والعلاج الدائم وبناته جميعا في المدرسة عـدا الصغيرة منهن، وهو حريص على إظهار بناتـه بـالمظهر اللائق أمام زميلاتهن.. كان يشركني في كل أسراره فوجهه النحيل المعروق كان شاشة أستعرض عليها كل يوم حوادث أمسه وأماني غده.. يأتي كل يوم بصـورة جديـدة فيقـول والسعادة ترقص في عينيه:

- تصور أن سهيلة اسـتطاعت أن تحصـل علـى المرتبة الأولى في صفها، لقد وعـدت بإهـدائها ساعة جميلة، سأبدأ بتوفير ثمنها منذ الآن.

وقال لي مرة وهو يضحك ملء شدقيه:

- الملعونة ليلى.. هل تدري ماذا تريد؟! إنها تريـد سيارة حمراء ناعمة كالسيارة التي تحضر كل يوم

لنقل الطالبة عفاف إلى البيت.. لقد تركتني غاضبة لأنني لم أعدها بهذه السيارة.

في يوم آخر قال والألم يقطر مع كلماته:

- الطبيب يطلب ثلاثين دينارا أجرة العملية الجراحية التي سيجريها لأم خميس.. لقـد أفهمتـه بـأنني عامل.. فمط شفتيه وقال: ولو..

وذات يوم كنت قد فرغت من ملء عربة التراب حين استوقفني قائلا:

- يا فائق.. قف أريد أن أسألك سؤالا.

قلت مستطلعا:

- هات.

فقال مترددا:

- كم سنة يمكن أن يعيش المصدور؟!

قلت بدهشة:

- ما شأنك بالمصدور يا عم؟!

فأن صوته خافتا متقطعا حزينا:

- إنني مصاب بالسل.

فوجئت وتملكني شعور بأسى ونقمة، بعد ذلـك بأيـام حاولت أن أقنعه بالذهاب إلى الطبيب، فكـان ينظـر إلـي بغضب ممزوج بضعف يكاد يمزقه.

- لا.. لن أذهب.. لن أذهب.

وأقول بإصرار:

- إدارة شركة المنجم لا تلتزم بعلاجنا.. معنى ذلـك موت أكيد وقريب، يجب أن تراجع الطبيب.

ويقول بأسى:

- أعرف ذلك، أعرفه تمام المعرفة.. ولكن ما الذي سيفعله الطبيب؟.. سيحولني إلى مستشفى السـل، والمستشفى سيطعمني ويعالجني، لكنه لـن يطعـم زوجتي وبناتي.. أرجو أن تكون قد فهمت.

وتسير الأيام وأبو خميس دائب علـى نهـش أحشـاء الجبل، يستخرج منه التراب الأبيض الرطب، والسل الملعون المعشش في صدره دائب على نهش الصدر لينزف دما قاتما مع كل نوبة سعال حادة.

وعشت فترة عذاب قاسية، عذاب أبي خمـيس، كـان سعاله يمزق صدري قبل أن يمزق صدره، كـان يرعبنـي

ونوبة السعال تهزه، والدم يسيل مختلطا بلعابه مـع جوانـب فمه، وعيناه جاحظتان مسمرتان في الفراغ، وتنتهـي نوبـة السعال ليعود إلى المعول والقفة، وكنت أغافله لأضع نصف ما أستخرجه من تراب في عربته، وهذا أقصى ما استطعت أن أقدمه للإنسان المنتحر، الإنسان الذي تمنيت مـن أجلـه لو أن الشباب شيء يعطى لأتخلى له عـن نصـف شـبابي راضيا مطمئنا.

وبدأ الرجل يشعر بالنهاية؛ فالجهد الذي يبذله في عمله الشاق يغذي العش الخبيث الذي يسكن صدره فيمور بعنـف، وكان أكثر ما يرعبه هو أن يأتي يوم يعجز فيه عن العمـل فتجوع الأسرة.. كان يتمنى بحرارة ألا يمـوت إلا بعـد أن تكمل ابنته سهيلة دراستها الثانوية لتصبح مدرسة وبعـدها.. إلى الجحيم.

ذات صباح لم يحضر أبو خميس إلى العمل.. علمـت أن المرض بدأ ينتصر، وذهبت إلى بيته وكان كل شيء في طريق النهاية.. نوبات السعال بدأت تخمد وتهدأ، جذوة الحياة في عينيه تخبو رويدا رويدا، ونظرة مسكينة محملـة بـألف معنى تواجهني كلما نظرت في عينيه، وسهيلة وأمها والبنات

ينتحبن بصوت خافت، وأغمض عينيه ورفع كفه المعروقـة، وانتفض، وسقطت كفه على صدره وأسدلت الغطـاء علـى الوجه الهارب من الحياة.

«كتبت عام ١٩٥٩»

وانهار الجدار

وانهار الجدار

كل ما حولي ينهار..

ليس ثمة من وجود..

لكن ثمة وجودا هناك.. المرض والموت.. وأنا أجاهد يائسا – لكنني أبتسم – أجاهد لأقهر المرض ولألعـن بثقـة وتحدٍ الموت.. ولا أمل.. أنا غارق حتى الـرأس ولا حتـى قشة هزيلة أتشبث بها.. عيونكم تقول هذا، والرجفة الحانيـة ليدك يا سليمان تؤكد النهاية التي أعرفها.. أنا أعيش اللحظة التي يستطيع الإنسان أن يلمس الألم فيها بيديـه.. أعيشـها بوعي مطلق.. أناملي شموع جنازة تسخر من الموت.. لكنها هي الأخرى ستموت.

أعيش أنا الآن التجربة.. التجربة التي نعرفهـا كلنـا ولكننا لم نلتق بها بعد أبدا.. أنا سألتقي بها.. لحظـات لـن تطول ويكون اللقاء.. أنا ألعن هذا اللقاء، وأريده، أمقـت أن يكون اللقاء بهذه الطريقة، ولكنه لن يكون إلا بها.. أنا أتألم.. لكنني أستشعر الجمال فيمن حولي.. جمال نظراتك الراجيـة يا مصطفى أشربها من عينيك.. جمال إصرارك يا لميـاء..

إصرارك اللامجدي في خنق الألم وبعث الحياة في جسـدي المشتعل المهترئ، فالورقـة الزرقـاء بخطوطهـا البيانيـة الصاعدة.. الصاعدة تشير إلى الحقيقة المرعبة.. عبثا تحاول عيونكم الحنونة استجداء الخطوط شيئا من الهبوط.. إنها في صعودها جد صارمة.. شجرة التوت بأغصـانها الخضـراء الوارفة.. لعينة هي هذه الأغصـان.. إنهـا تلـف رقبتـي المعروقة الهزيلة المشتعلة.. تلفها بنزق لتعصر آخر ما فيها من حياة.. والشلال الأبيض ماؤه حميم ورذاذه رماد حـار.. والصبي الصغير بكومة الخس القابعة أمامه تهزأ بي.. مـا عاد لون الخس أخضر.. أنه بلا لون.. مـا عـاد كلامـك يا مصطفى يهمني.. فمناخك الآن غير مناخي.. أنا أخطـو الخطوات الأخيرة حيث لا بد من وقفة.. الخط الصاعد سيتيح لي لحظات أقف فيها قبل أن أهوي.. صدقوني، إنني تافـه.. أعيش لحظات صفاء لا يعيشها الإنسان إلا مرة واحدة، ثـم ينتهي.. لحظات لا تحتمل إلا الصدق.. أنـا تافـه.. ثمانيـة وعشرون عاما عشتها دون أن أحقق شيئا.. تفاهـة كالحـة تلون عيني، وقُشعريرة مرارة تهز جسدي المنهوك.. أتـرك يدي.. إنها تشتعل وجوفي يمور.. أنظر إلى الخط الصـاعد

فهو يبين لك جهنم التي تسكن جسدي ولا تفسد علي لحظات الصفاء التي أعيشها.

كل شيء واضح كحبة كرز حمراء تبتسم مـن علـى خدرها الأخضر الرائع. أحببت مرتين، بل مرة واحدة، ومـا الحالة الثانية إلا استمرارا للأولى.. في حبـي الأول نبـذت كبصقة لزجة استقرت على أرض قذرة تطؤها كل حين قـدم حقيرة، وفي الحالة الثانية لا زالت البصقة رضابا فـي الفـم الحلو المزموم.. عل السبب أن الثانية لا تدري بحبي، لكنني سعيد؛ فأنا لم أرتبط.

لست جبانا.. أطل على الهاوية بلا أدنى شعور بجبن، لكن التفاهة لا زالت تلون عيني.

البغي الملعونة أجرجرها ورطوبـة ليـل كـورنيش الإسكندرية تغيظني.. إن للحمها فـي فمـي مـذاقَ التبـغ الرخيص والقروش القليلة تشتعل في يدي.. فاسد فاسد أنت.. لست ابني.. لعن الله يوما دخلت فيه هذه الدنيا.

كلكم لكم حكاياتكم العظيمة إلا أنا.. عيونكم بصـفائها وتصميمها تصعقني.. تافه أنا تافه كالحكاية التي من أجلهـا وجدت بينكم خطأ.. آراؤكم تسحقني.. أنـا لا رأي لـي، لا

عقيدة، لا مبدأ، لا إيمان.. ريشة منتنة تخاص منهـا طـائر متمرد.

حتى الأغطية الرخيصة تسـرقونها لتعـروا جسـدي النحيل الملتهب بنيران الحمى المجرمة.. إن كان لا بد مـن أن تدوسوا جسدي بأقدامكم، فعروها كما عـريتم جسـدي، وألقوا من أيديكم هذه اللافتات اللعينة التي تعلن حقيقتي.. أنا عالم بحقيقتي، أحرقوا هذه اللافتات، أنا أشتعل.. أموت.. ألا ترحمون إنسانا يموت؟ لكن لا.. افعلوا بي ما تريدون.. أنـا أكره أن ترحموني.. مزقوا جسدي.. أحرقوه واصنعوا مـن رماده تمثالا ثم حطموه.

همسكم المبحوح يكاد يفجر رأسي.

- إنه يموت..
- خبروا أهله..
- لكنه لا يريد..
- إنه يود أن ينسحب بهدوء.

الطفل الصغير يحبو وبسمة مشـرقة تتبـرعم علـى صفحة وجهه.. إنـه يقتـرب. لا.. لا.. بـربكم أبعـدوه..

الأغصان الملعونة تتطاول.. تكـاد تنغـرس فـي عنقـه.. ستخنقه.. ستخنقه.

عيناي بصرعٍ تتدحرجان مع الجداول المعلقة في ردهة الكلية.. سأبرق إليه.. نجحت.. ستنطفئ الومضات الغريبـة المخيفة من عينيه.. سيدفع بطربوشه إلى الأمـام ويتحسـس كرشه ويتمتم.. إنه ابني.. إنه عظيم.. أنا أعرفه.. إنه ابني.

حبات اللوز الخضـراء.. أحبهـا.. أود أن أتحسـس خضرتها المخملية.. لكنها ترتعش.. تسير.. تتعانق.. لتكون هرما هائلا قاعدته في الهواء ورأسه ينغرس في صدري.

لن يتأتى لكم إقناعها بأنني تافه.. لا أستحق دمعة غالية تنزل مع أخاديد وجهها الأبيض النبيل.. لأنكم أنتم لا تريدون أن تقتنعوا، إلا من ألف ذئب ليلعقوا السائل الكريه الرائحـة الذي يسيل مع جنبي.. إنه يزكمني.. إلي بالذئاب؛ فهي لـن تخيفني، فالهاوية أشد إخافة منها وأنا لا أخافها.

العجوز القميء يتوكأ على عصـاه ويتمـتم كلمـات بلا معنى.. وحبات مسابحه سوداء كالحة.. أبعدوه عني. إنه يغرس عصاه في عيني.. عصاه مشروخة الطرف تعشـش

القذارة في شقوقها.. الصفاء يسبح من قلبـي إلـى عينـي. لا تدعوه يغتال هذا الصفاء.

يا حسن.. حبات الدمع التي تترقرق علـى شـواطئ عينيك.. احفظ هذه الحبات.. لا تدعها تفلت.. احتفظ بها لأمر أهم.

- يا ماجد.
- .....
- ألم تقل منذ البداية إنك لن تستسلم!
- .....

أنا أحب الحياة؛ لأني يائس من الحياة، سأتركك للعبث وسأتحرر أنا من زنزانة البصاق وستبقى أنـت حبيسـها.. عاجزا ممزقا ذليلا.. كل ما تملك إغماضـة عـين مغبشـة ببصاق السكارى والحشاشين.. ستظل فـي العبـث تـدور وسأصل أنا إلى القرار.. وسيظل الصغار وإلى الأبد يحبون - على الخرائب المغلفة برائحة البـارود - الرائحـةَ التـي تتقدمهم دوما.

ما عادت خفافيش الظلام ترهبني.. لن أضـطر إلـى التظاهر أمامها بالبلاهة. لن تخطف من يدي اللقمة.. وستبقى

أنت طريدا، والخفافيش يزعجك رفيف أجنحتهـا، وتزكمـك نتانتها.

- إلى أين؟!
- لا أدري.
- لكنني أدري..!
- إذن لم تسألني..؟
- أنت وقِح..
- أعرف ذلك.

وتهاويت أنا تحت الضربات الرهيبة الحاقدة، يومهـا هربت أنت، ورحت أنا ضحية بلاهتي.

حبات المطر تدق زجاج النافذة بإصرار. تغيظني هذه الحبات.. إنها تضرب جدران قلبي المحتضـر.. تدغدغـه.. تعبث به في ساعة موته.. لكن خورا لذيذًا يسري الآن فـي أوصالي.. إنه يطرد الألم.. يجتثه.. وألف ألف بـرعم ورد تنمو في جسدي المشتعل.. تشرب من دمي، وتقتات لحمـي المهترئ.. وتكف الحبـات عـن دق الزجـاج.. وتـذوب الدغدغات الناعمة وتعود أمواج الألم.. فإذا بـراعم الـورد

أشلاء محطمة مهروسة.. والأرض الصلبة عجينـة عفـن.. وأغصان التوت حبال جلاد، وهرم اللوز الأخضـر لا زال منغرسا في صدري، والصبي يهزأ بي، والخس بـلا لـون، والماء حميم، والرذاذ رماد حار، والهاوية تبتسـم، والـدنيا تظلم.

«كتبت عام ١٩٦١»

الشمس

تذوب

الشمس تذوب

لمحتها من خلال زجاج باب المقصورة.. مرت ببطء ثم عادت ومرت ثانية، وغلبني النعاس فنمت لأصحو على الشمس تصفح وجهي، أشعات لفافة.. الكل يغط في سبات عميق إلا أنا، والقطار الذي ينطلق فجر كل يوم عبر الصحراء من غزة إلى القاهرة.. إنها الثامنة صباحا، ثلاث ساعات مضت على مغادرتنا غزة، سحبت جسدي من على المقعد وفتحت باب المقصورة بهدوء وتوجهت إلى عربة الطعام، فوجدتها غاصة بخليط المسافرين، فانتظرت حتى شغرت مائدة جلست على أحد مقاعدها، وطلبت إفطارا خفيفا ودفنت وجهي في مجلة أسبوعية لأصحو بعد لحظات على صوت ناعم:

- أرجو ألا أزعجك إذا شغلت المقعد الآخر!

دفعت المجلة..

- تفضلي.

- شكرا لك.

عدت إلى المجلة.. إنها هي تلك التي مرت من بـاب المقصورة.. جميلة.. بل أكثر من جميلة، حاولت أن أتملاها من أعلى طرف المجلة.. وفكرت.. سأتملاها حين حضـور الطعام.. وجيء به:

- تفضلي.
- شكرا سأطلب قدحا من القهوة.
- الآنسة تسافر وحيدة.
- نعم.. ولكن شقيقي ينتظرني في القـاهرة.. إنـه طالب في كلية الحقوق.

انصرفت إلى طعامي وأنا أختلس النظر إليهـا.. ثـم وجدت نفسي أتركـه لأتفرسـها.. شـعرها أسـود طويـل اختصرته في جديلتين تدلت إحداهما مـع صـدرها النـافر والأخرى مع ظهرها.. بشرتها عاجية رائعة.. رموش طويلة ترف بخفر لتزيد جمال عينيها السوداوين، وشـفاه ممتلئـة باعتدال وأنف دقيق.

لاحظت انقطاعي عن الطعـام، فتسـلقت بنظراتهـا صدري حتى عيني فوجدت نفسها محشورة فيهما، فارتكبـت وهمست في محاولة لتبديد هذا الصمت الثقيل.

- نجلس إلى طاولة واحدة ولا نتعارف!

همست..

- عفوا.. غسان.. مدرس في رفح، وأسكن غزة.

- عريب مدرسة في الشجاعية بغزة.

واستطردت:

- تسافر للراحة والاستجمام؟..

- بل للسهر والتعب.. فأنا منتسب لكليـة الحقـوق بجامعة الإسكندرية وأمامي الفحص بكل منغصاته وتفاهاته.

- الحياة كلها سهر وتعب.. أتمنى أن تتاح لي فرصة كفرصتك.

- ولم لا؟!

- عندنا في البيت يقولون: الفتاة مكانها البيت وكفاك ما نلت من علم.. تصور أنهم لـم يسـمحوا لـي بالسفر لزيارة شقيقي بالقاهرة إلا بعد محـاورات ومناقشات طويلة مملة.

- علهم على حق!!

وأرادت أن تعارض، لكن حضور زملائي وتحيتهم لي دفعها للاستئذان والانسحاب إلى مقصورتها، مخلفة موجة من التعليقات والأسئلة غمرني بها زملائي.

غادرت القطار في محطة «بنهـا» لأسـتقل القطـار المتوجه إلى الإسكندرية، ولمحتها من على الرصيف ترتكـز بمرفقيها على حافة شباك المقصورة، فأشـرت لهـا بيـدي مودعا.. إشارة خائفة مجفلة.. فردت بإشارة جريئة قويـة.. فخفق قلبي!.

في الطريق إلى الإسكندرية اختلط طيفها الحلو بخضرة حقول أرض مصر الدافئـة الخيـرة، وبـالأكواخ الحقيـرة المبعثرة على طول امتداد خط سكة الحديد ليمحـي طيفهـا تماما مع وصولي إلـى محطـة «سـيدي جـابر» برمـل الإسكندرية، ولأستقبل بلادا لي فيه أجمل الذكريات.

انسلخت أيام الامتحان لتتبعها أيـام راحـة وانطـلاق عشت كل لحظة فيها.. وتنتهي هذه الأيام بقرب نفاذ نقـودي فأعود لأودع الإسكندرية عائدا إلـى غـزة، حيـث البحـر والشمس والفراغ والملل.

استقبلتني محطة بنها ثانية.. وجلست أنتظر قطار غزة مستعرضا معالم ثابتة بالنسبة لكل محطة قطار في مصـر.. الشيال ببزته الزرقاء تتعلق عيناه بأفق زائف يلتقي فيه خطا السكة الحديد.. بائع السميط والبيض، والملل يلفه والنعـاس يداعب أجفانه.. ثم بائع الترمس وهو غالبا ما يكون صـبيا كثير الحركة، والصياح وبائع الزجاجات الغازيـة.. صـور خاملة بائسة تدب فيها الحياة مع قدوم كل قطار.

غفوت على مقعدي في ركن المحطة لأصحو بعد قليل على الحياة تدب في المحطة مع وصول قطار غزة.. صعدت إلى إحدى عربات الدرجة الثانية مؤملا أن أجـد مقصـورة خالية.. مررت بمقاصير عدة لمحت في آخرها فراغ المقعد المواجه للباب ودخلت وكانت هناك عريب..

- صباح الخير.
- صباح النور.
- صدفة جميلة!!
- أرجو أن تكون.

رتبت حوائجي على الرف وجلست لتقول:

- كيف امتحانك؟

- أرجو أن أكون قد قمت بواجبي.. أين شقيقك؟
- بقي في القاهرة ينتظر النتيجة.
- أرجو أن تكوني قد استمعتِ برحلتك.
- من سوء الحظ.. لا
- ولم؟!
- هل تظن أن أخي أقل تزمتا من والدي.. تصـور رحلة كنت آمل أن أعيش كل سـاعاتها، أقضـيها حبيسة جدران أربعة؛ فأخي لا يستطيع أن يتـرك دروسه وبعد انتهاء فحوصـه راح فـي سـبات لا يصحو منه إلا ليعود إليه.. كم أنا نادمة علـى هذه الرحلة.
- لكنك زرت بلادا جميلا.
- نعم لكنني لم أعش أيام زيارتي هذه.

أطرقت وأطرقت.

مع امتداد الخط الحديدي الذي يجرح بامتـداده الـذي يكاد لا ينتهي كبرياء وعذرية سيناء، امتـد بنـا الحـديث.. حدثتني عن طفولتها التي تتماثل لها في صور باهتة عاشتها

في بلادها يافا، وعن صور أكثر وضوحا عاشتها بعد الهجرة في غزة.. فقدت شقيقها الكبير في معركة يافا، فخاف فقـده في البيت ظلا من لوعة لا زالت آثارها تلون أيـام الأسـرة بلون قاتم معتم... والدها أشدهم حزنا ويـردد باسـتمرار.. فقدنا البلاد والولد.. أمها أشدهم صبرا وإيمانا.. لولا صـبرها وحنانها لغدا البيت جحيما.. حدثتني عـن تزمـت والـدها المفرط وعادات وتقاليد موروثة بالية يتمسك بها ويحاول أن يقيدهم بسخافاتها.. وتسكت فجأة ويعتريها الارتباك وتهمس:

- آسفة ما كان يجب أن أذكر هذا عن والدي.. لكنني وجدت نفسي مندفعة إلى ذلك، أنـت أول إنسـان أفاتحه بأمور خاصة.

أهمس بسعادة وانفعال:

- لا داعي للأسف يا عريب.. كـم أنـا سـعيد أن تمنحيني ثقتك التي أرجو أن أكون جـديرا بهـا.. وما أنت بالشقيقة كما تتصورين؛ فلكل منا مشاكله ومآسيه التي قد نتصور أنها مرهقة قاتلة.. لكنهـا في الواقع تلوث حياة كل إنسـان.. ومـا مقـدار السعادة التي ننال إلا بمقدار الشقاء الذي نعاني.

في محطة غزة ودعتها بصمت وجلال.

جهدت خلال المطلة أن أنقل مـن رفـح إلـى غـزة وحالفني التوفيق ونقلت إلى الشجاعية حيث مدرسة عريب.

أقبلت على عملي بتفاؤل وحيوية.. ورفضت عرضـا من والدي بأن أستقيل لأتفرغ للدراسة وجهدت مـن جهـة أخرى أن أتصل بعريب فما استطعت.. كنت أراها وتراني كل يوم دون ما لقاء، ووجدت نفسي مجبـرا علـى سـلوك الدرب الصحيح.

رحب والدي بفكرة الخطوبة ورحب والد عريب.

والآن وبعد مرور عامين، أجلس في نفس المكان مـن عربة القطار التي التقيت فيها بعريب أطفئ لفافـة لأشـعل أخرى، وسحب الدخان تزرع أمواج السعال فـي صـدري، وتبلد إحساساتي وتقودني إلـى ذكريـات مـرة، وصـور أستعرضها لأستجدي منها ظلا من سعادة فتجود بظلال باهتة تعود لتطمسها بضربة واحدة قاصمة.. أيام حلوة عشتها بعد الخطوبة.. هجرت حياة الليل وزملاء المقاهي، وصرفت كل جهدي للقيام بواجبي وتنظيم دراستي؛ لأن في هـذا رضـاء عريب التي ما كنت قادرا على فراقها.

دوما أجلس إليها أرتشف الحب من عينيها، وأسـتلهم السعادة ترف مضمخة بعبير أنفاسها الحرى المدنفة.. أحيني والدها ووثق بي كفرد من العائلة.. وبدأت أعيش بإحسـاس من ملك كل مباهج الدنيا، وحسبت أن الدهر قد جاد بالحـب والسعادة التي ستكتمل حين يجمعني وعريـب بيـت واحـد يسكنه حب قوي تظلله آمال عذاب.

النهاية.. النهاية.. إنها تتجسد في الضربة القاصمة..

الخيط الدخاني الرفيع الذي يتصاعد مع طرف لفـافتي التي تتدلى مع شفاهي المرتخية، ساعدتني على رسم معـالم النهاية.. تعرجاته والتواءاته الحادة العفويـة تلـف رأسـي لتمتص منه التعرجات وتتداخل لتكون أعمدة من دخان تذيب شمسي، وتنسج خيوطها الذهبية الناعمة حبالا سوداء ملطخة بدم لونه رمل أصفر كالح.. وتنتهي التعرجات وتتلاشى مـع نفاذ تبغ اللفافة، فأشعل أخرى فيعود الدخان ليرسـم معـالم نهاية عجزت أنا عن رسمها.. ينطلق الدخان شفافا كسـماء يوم خميس غزة الربيعي ذاك.. ويبدأ في فقد شفافيته كسـماء ظهر ذاك اليوم في غزة؛ حيث يفسد صفحة السماء الزرقـاء بخار ماء البحر الثقيل المتصاعد من بحر غـزة.. وأسـحب

نفسا قويا من الدخان، وتنحبس السحب أو تكـاد كانحبـاس انطلاق البخار مع هدأة أنفاس الشمس.. وأطلق نهر الـدخان المحبوس في صدري مصحوبا بنوبة سعالية حـادة محرقـة وتتراوى لي الضربة القاصمة أعمدة من دخان تخلفها القنابل المتساقطة فوق بيوت الحي الشرقي من غزة في الشجاعية.. انفجار مروع ثم عمود دخاني أزرق باهت لونه غبار قـوي غاضب.. وتنتصب الأعمدة فوق أكثر البيوت لتسـتر دمـا يسفح وأشلاء تتطاير وعيونا يطفئها الموت.. وتهـدأ نوبـة السعال في صدري وتعود الحياة تعمر شعابه.. ويهدأ ضرب القنابل ثم ينقطع.. وتعود الحياة مجفلة خائفة حـذرة لتعمـر شوارع غزة.. وعريب وأنا يغادر كل مدرسته لننطلق فـي الشارع نسير والموت بصوره المرعبة يبصم كل متـر فـي الشارع.. يمور السعال في صدري من جديد.. تعود أعمـدة الدخان لتنتصب فوق بيوت غزة من جديد.. وأشد عريب إلى بقوة والقنابل تتناثر.. الحياة تخبـو فـي الشـارع.. نسـير ونسير.. أعمدة الدخان تقترب.. تقترب.. الـدخان يزكمنـي والحياة حولي تحتضر.. سائل حار لزج يسيل مـع سـاقي اليسرى.. أتحسس ساقي المهشمة بهلـع ولهفـة.. الـدخان

الملوث يلفني.. عيناي تبحثان بلهفة وجنون عن نـور.. أي نور.. يدي تصدم جسد غريب.. إنه هادئ مرتخ.. أيد غريبة تسحب الجسد من جانبي وبرفق ترفعني.. ومحرك يهدر في رأسي وحرقان شديد يلوك قلبي، والشمس تبهت.. تبهـت.. إنها تذوب.

«كتبت عام ١٩٥٩»

الزنجية

الزنجية

الليل داج، خنقت قمره سحب ليلة شتاء، عواء عاصفة تتلوى مجنونة، في سماء ليل المدينة، دقات مصـرة لـريح صرصر تكاد تقتلع النافذة الوحيدة في غرفتي المكومة علـى سطح عمارة ضخمة، أقبع أنا متكوما وسط سريري، غطـاء قطني بلا لون يلف جسدي محاولا أن يبعث فـي أوصـاله بعض الدفء بلا جدوى. أنا ما عدت أعرف الـدفء. أنـا مات عد أعرف الدفء منذ أن انغرست الإبرة في ظهري.

الصقيع هنا في كل مكان، في الدروب، في العيـون، في البيوت، في القلوب، في كل نأمة، في كل التفاتة، لـيس ثمة من دفء، ليس ثمة من دفء. أخرج في النهاية لأعـود وأقبع هنا في الليل وقد اختزنت عيناي كل صـقيع المدينـة، الصقيع جفف عروقي، شققها، ذبح فيها الحياة، جمد الصـدأ الذي يشرنق الإبرة المنغرسة في ظهري، الزنجية أمامي، لها وجه كقدري، وعينان فيهما سخرية تلذعني، وبسمة تفتر عن أسنان تلمع كأمل زائف. وأغمض عينـي. أتحسـس علبـة اللفائف الفارغة بجواري، وأتمتم مقهورا:

- يا ملعونة.

ويأتيني ردها مريعا حازما:

- ملعون أنت.

- أعلم، أعلم.

- الغريب أنك تعلم كل شيء، ولا تعمل شيئا!!

- أعلم، أعلم.

- اخرس.

حتى أنت يا زنجية، هيه، أنا لا ألومـك، أعلـم أنـك مقرورة معذبة، ما كان يجب أن أصطحبك لتكابدي ما منه أنا أكابد، لكنك أصررت على مرافقتي، عيناك كان فيهما رجاء لا يقاوم. فأتيت بك إلى هنا لتقبعي معي في غرفتي التـي لا يعمرها سوى جوع وصقيع وضياع، ثم منضدة تستر تشـقق خشبها كتب كثيرة ومختلفة، ثم مقعد له مسند مقلوع وصورة لرجل ذي لحية أبنوسية سوداء، له عينان يلمع فيهما بريـق أخاذ يأسر قلبي، يشدهني، يشدني إليهما ساعات وسـاعات، فأنسى الجوع، والصقيع والضياع.

حتى أنت يا زنجية، تنسـينني عينـي الرجـل، إنـك تشاركينني الغرفة. أعلم أن الصورة تغيظك، أنـك تـودين تحطيمها، تمزيقها، حرقهـا وذر رمادهـا، لكـنهم فعلـوا، حطموها، داسوها بأقدامهم، وغرسوا الإبرة في ظهري. لكن عيني الرجل ما زالت في عيني. وأنا أحـب العيـون، كـل العيون.

أحب عيون أبناء قريتي يشع منها الدفء. أحب عيني الفتاة التي أنتظرها كل صباح، منذ البـدء أحببـت عينيهـا. الصرصار الداكن لا يخاف الظلمة، إنه يقضم بلاط الغرفـة. عله جائع مثلي ومثلك يا زنجية. عيناها بالأمس هزأت بـي عندما تفرستها. أنا أعلم أن وجهي مطبوع بقسـوة، لكننـي أحب عينيها، في عينيها غدران عسل تظللها عيـدان عنبـر ترف كل حين، فأحس لانغراسها في قلبي لـذةً، لا أمتلكهـا إلا لحظة ثم تهرب، فأشتمك يا زنجية، وأعود أدور في أزقة المدينة المجدورة، آكل أرض الأزقة بقدمي، وآكل أقدام أهل الأزقة بعيني، وتبصقني الأزقة إلى شارع له أرض رخـوة. بدأ اليأس ينهشني، ويخيل إلي أن نفسي بدأت تستطيب هـذا اليأس؛ فاليأس قد يعني شيئا بالنسبة لي.

حدث مرة في طرف المدينـة بعيـدا عـن الأزقـة المجدورة أن رأيتها، حدث ذلك والصـقيع يجمـد الهـواء، فلا أكاد أتنفس، وحركة المرور على أشدها، وعيناي تأكلان بفتور ومال أرض الشارع الصلبة، رأيت ساقيها، ثم رأيـت خصرها نحيلا كأنملة فنان، ثم رأيت صـدرها، ثـم رأيـت عينيها، وفي عينيها رأيت (الشيء).

لم يكن هناك ما يميزها عن غيرها سوى عينيها. كان فيهما (الشيء)، شيء تملكه كل العيـون ولا تقـوى علـى إظهاره إلا القليل من العيون، مـرت، اسـتدرت وعينـاي منغرستان في ظهرها، في مؤخرة رأسها الملفوف في ليـل شعرها، كنت أرى عينيها دون أن أراهما. دارت مع الشارع ودرت. ابتلعتها عمارة فارهة، عدت، من يومهـا والشـيء الذي في عينيها يشدني إليهـا، يشـدني لأقـف علـى رأس الشارع، منتظرا مرورها.

كنت أقف معرى دون رتوش سوى إبرة مزروعة في ظهري، تمر، أملك الشيء الذي في عينيها لحظـة لا تلبـث وتموت. لي أنا - يا زنجية - مقدرة رائعـة علـى تملـك التعاسة، في اللحظات التي أجيد فيها تملك التعاسة يا زنجيـة

يزداد كرهي لك، ويتضاعف تشبثي في التمعن فـي عينـي الرجل ذي اللحية الأبنوسية السوداء، إنك تعرفين تعاسـتي، وهو يلونها ويشكلها، فأزهو بالصور التعيسة، أملكها وحدي، في ذهني، أتحسسها تلال ألم منثورة على جسدي. بـالأمس حين مرت تحول (الشيء) في عينيهـا إلـى شـواظ هـزء وسخرية، كرهتها، ثم كرهت نفسي. أنا الذي لا يلبث كل يوم ويخدع، العاصفة لا تزال تعوي وكأنها رجع فرقعة صـوت يتلهى به مارد ما فتئ يجلد ليل المدينة. القشعريرة تهز بدني المهترئ، عيناي فيهما صفاء يسخر من ظلمة الغرفة، سخر مني العجوز ذو النظارات السميكة والعينين الفأريتين أمـس، نبح قائلا:

- إنها المرة الثالثة التي أقول لك فيها بأن لا عمل لك عندنا.

كلهم متشابهون، لهم نفس العيون، وأنا لا أعرف الناس إلا من عيونهم. كنت قد نسيت أنني راجعته باحثا عن عمل، لا زال نباحه في أذني، عيناه لا زالتا منغرستين في جبهتي، لهما ملمس المخمل، لا تلبث وتفقأهما أصابعي فتسيل منهمـا لزوجة تغشى عيني فتغتال صفاءهما، العاصفة مـا زالـت

تعوي، وأنا ما زلت مقرورا والحنين إلـى الـدفء ينحـت وجهي، ينقر عيني، يشد أعصابي عصـبا عصـبا، يفسـخ عظامي عظمة عظمة. كنت أنام ثماني ساعات، كانـت لـي أحلام، لكن - وبعد أن عرفتك يا زنجية - ما عـدت أنـام، ما عدت أملك لياليا تهدهدها أحلام ناس لهم أيـام يعيشـونها ويحبونها.

ليلة أمس وفي اللحظات القليلة التي ملكت فيها النـوم رأيت - فيما يرى النائم - أنني محشور في كومـة حطـب نخرة تطؤها كل حين أقدام عملاقة، فينغرس الحطب المدبب الجاف في لحمي المحموم، فيسيل دم يختلط مع بقايا الحطب الذي نخره السوس فتتشكل عجينة تتحسسها أناملي تضغطها، تنقلها إلى فمي، آكلها، لكنني أظل ظمآن.

بالأمس رأيته. حاولت عيناه أن تتنكراني، كوتني شفتاه ببسمة مجرمة، كانت كذلك لأنها كانت زائفـة. لـم أبتسـم، تحسست فراغ جيبي بحثا عن علبة لفائف غيـر موجـودة، وظلت يدي منغرسة بعنف في جيبي، وفح صوته:

- أراك هنا!!

- .....

- سمعت أنك غادرت المدينة....

- .....

- لدي بعض الوقت. ما رأيك في فنجان قهوة؟؟

تحركت، تحرك من ورائي، جلست على أول مقعد في أول مقهى فجلس، امتدت يده بلفافة رفضتها هـزات رأسـي رغم تحرقي إليها، تكلم بلغة جديدة ما فهمت شيئا منها، كان هو هناك في المقهى يجلس، وكنت أنا هنا معك يا زنجيـة. تفرست وجهه المطاطي اللامع وحملته ذاكرتي مـن علـى كرسي المقهى إلى هذا الكرسي ذي المسند المقلوع. تفرسته عيناي من جديد، فإذا بالمطاط الذي كان يكسو عظام وجهـه كان من ضمن باقة الوجوه التي أحب والتي من أجلها سكنت وإياك المدينة. تذكرين، كان يتلقف كلماتي، يغمسها في دمه، يحتضنها في قلبه، يخزنها في عينيه، ويخرج فتخـرج معـه بقية الوجوه، قلوبهم معي وقلبـي معهـم، كنـا بمجموعنـا سيمفونية حب وعمل وفداء، سيمفونية مسجلة علـى وجـه أسطوانة لحمتها أرواحنا.

وكانت تدور الأسطوانة والإبرة تدغدغ وجهها فتنطلق الأنغام، نسعد بها، ويسعد بها الناس، كل الناس، ضغطت يد

حقود على الإبرة فانغرست في الأسـطوانة فتوقفـت، هـم هربوا، وما زالت الإبرة منغرسـة فـي ظهـري، أحملهـا وأحملها، كلما رأيت أحدهم أحس به يحمل مطرقة يهوي بها مغمضا عينيه على ظهري فيزداد انغراس الإبرة في ظهري، كنت أحاول أن أنظر في عينيه وهو جـالس أمـامي علـى كرسي المقهى فما مكنني، تركني وهرب، عدت، عدت إليكِ يا زنجية، والآخر، لم أر ذلك الآخر منذ زمن، تذكرينه، هو الذي أمسك بك بإصبعين نـاحلين طـويلين، ودفعـك عـن المنضدة، وعلقك بإصبعيه في الهواء، وتفرسك كما يتفـرس طفل خائف حرباء مهروسة، ويتمتم وهو لا زال يتفرسك:

- لم تحتفظ بتمثال هذه الزنجية هنا؟!

ووضعك مكانك من جديد بجوار إناء الزهور، كان في الإناء يومها عيدان ياسمين خضراء يزيـد لمعـان نجومهـا البيضاء سواد معدن بشرتك، وخلفك على المنضـدة كانـت سلسلة كتاب (قصة الحضارة)، أمسك بكتـاب منهـا، قلـب بعض صفحاته ثم رده، فشعرت بارتياح ازداد حين غادرنـا مستأذنا، إنه الآن منهم، من الذين يحملون المطرقة ويـدقون بها ظهري ليزيدوا من انغراس الإبرة فيه، المطـر يبـري

زجاج نافذة غرفتي ولا يحطمه، أود لو يفعل، أشـعر أننـي استنفذت حياتي، فهل اسـتنفذتها؟ أخشـى أن أسـتيقظ ذات صباح فأجد نفسي ميتا، حتى إذا مت، هل ستموت الحياة في غرفتي الجرباء؟ عيون الرجل ذي اللحية الأبنوسية تقول: لا، وأنا أقول: لا، فالحياة لا تموت ، سـيجرفونني مـن الغرفـة، ستدفئ الغرفة أنفاس جديدة، لكنك لن تسعدي بدفء الأنفـاس الجديدة، أنـت قـدري الأسـود، الإنسـان إذا مـات، مـات قدره معه.

كتبت عام ١٩٦٤

زجاج نافذة غرفتي ولا يحطمه، أود لو يفعل، أشـعر أننـي استنفذت حياتي، فهل اسـتنفذتها؟ أخشـى أن أسـتيقظ ذات صباح فأجد نفسي ميتا، حتى إذا مت، هل ستموت الحياة في غرفتي الجرباء؟ عيون الرجل ذي اللحية الأبنوسية تقول: لا، وأنا أقول: لا، فالحياة لا تموت ، سـيجرفونني مـن الغرفـة، ستدفئ الغرفة أنفاس جديدة، لكنك لن تسعدي بدفء الأنفـاس الجديدة، أنـت قـدري الأسـود، الإنسـان إذا مـات، مـات قدره معه.

كتبت عام ١٩٦٤